ابتسام شوقي

إنهم حقًّا رجال شرفاء

رواية

ابتسام شوقي

إنهم حقًّا رجال شرفاء

رواية

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥
© ابتسام شوقي ٢٠٢٥
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلفة، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

شوقي، ابتسام.
إنهم حقًّا رجال شرفاء: رواية / ابتسام شوقي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.
١٧٦ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789779603308
١- القصص العربية.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧١٨ / ٢٠٢٥

تصميم الغلاف: أحمد فرج

المحتويات

أم علياء ١
أم علياء ٢
أم علياء ٣
أم علياء ٤
أم علياء ٥
أم علياء ٦
أم علياء ٧
أم علياء ٨
أم علياء ٩
بيت الحريم ٥
أم علياء ١٠
أم علياء ١١
أم علياء ١٢
بيت الحريم ٦
أم علياء ١٣
أم علياء ١٤
أم علياء ١٥
بيت الحريم ٧
بيت الحريم ٨
بيت الحريم ٩
بيت الحريم ١٠
بيت الحريم ١١
بيت الحريم ١٢
بيت الحريم ١٣
أم علياء ١٦
أم علياء ١٧
أم علياء ١٨
أم علياء خاتمة

المؤلفة

إهداء

إلى كل من قرأ يومًا

إلى كل من يقرأ الآن

إلى كل من سيقرأ

شكرًا

أكره هذا الجسد. لم يسعني يومًا، لم يسعفني يومًا، لم يتصرف يومًا كما تريد الروح التي يحبسها في داخله.

حبس طفلة تحب الحياة داخل حيز بدين يُعجزها عن الحركة ويثير سخرية جميع من يراها، حبس شابة تريد أن تظهر جمالها في حيز غير متناسق، وأهان روح امرأة بين يدَي زوجها، ويوم أن منحها فرصة للحياة أخطأ في الاختيار.

أما الآن؛ فأصبح كصندوق صفيح أكله الصدأ، كل حركة مني تصدر أزيزًا وكأنه على وشك التفكك والانهيار! ركبتاي لا تتحملانني، ظهري يقتله النخر، رأسي ثقيل، يداي ترتعشان، صدري ضيق، معدتي تتلوى، أسناني تساقطت، شعري يكاد يختفي.

جسد شاخ؛ سبعون عامًا عاشها هذا الجسد، سبعون عامًا! لكنه يحمل بداخله روح امرأة عاشت مئات الأعوام، امرأة عجوز كما يقول جسدها، عجوز بطيئة الحركة تعيش وحيدة في شقة أرضي تتكون من غرفتين وصالة، تشغل هي منها حيز مترين فقط. شقة في حي قديم من أحياء الإسكندرية الشعبية، حكى لها أبوها النازح من الصعيد أنه من أوائل الأحياء التي بُنيت في المدينة والتي سكنها الوافدون، الباحثون عن العمل من المحافظات البعيدة التي تلفظ أبناءها.

حي لم تفارقه منذ ولادتها، فهنا تزوج والداها وهنا تزوجت هي بفارق عدة شوارع وعدد من الأدوار السكنية.

والداها سكنا غرفتين وصالة في دور أخير، نافذة إحدى الغرف كانت ترى السماء ولا شيء آخر، شرفة الغرفة الأخرى مصممة لتبدو كعلبة صغيرة، اعتادت حبس نفسها فيها والجلوس على أرضها ومطالعة السحب المتحركة فوقها.

ثم تغير القدر! أو كما يقولون: من اعتاد على شيء، يزهده ويفقد إحساسه بقيمته! لقد زهدت السماء! فتزوجت في دور أرضي وانتهت بها الحال إلى الجلوس فوق أريكة ضخمة أصبحت سريرها في غرفتها ذات النافذة الوحيدة التي تطل على الشارع. تسكن دورًا أرضيًّا لا شرفة له، لم تعرف يومًا الوقوف في شرفة لمشاهدة ما يحدث في الشارع! لكنها تسمع وترى كل ما

يجري فيه من نافذتها.

أنا أسكن الشارع، هذا ما اعتدت قوله طوال حياتي.

أستيقظ كل يوم وأتساءل: لماذا أبقى حية؟ لماذا أنا حية حتى هذا اليوم؟ امرأة عجوز تجاوزت السبعين من عمرها منذ عدة أشهر، تعيش وحدها منذ ما يقارب الثلاثين عامًا أو أقل قليلًا، مات زوجها، هجرتها ابنتها الوحيدة ثم عاشت بعدهما وحيدة تمامًا! لماذا أحيا حتى الآن؟

أستيقظ وأنظر إلى بيتي الذي أصبح كجسدي؛ باليًا، مهترئًا وقديمًا.

أنظر إلى قماش المفروشات الذي تفسخ وانقطع وذاب، ألوانه بهتت. السجاد البالي الذي نسلت أطرافه، الأثاث الذي تشقق وتسوس خشبه، الحوائط التي أصبح من الصعب التعرف على لونها الأصلي، الشقوق التي ترسم منحنيات وخرائط تشرح طبيعة ما عاشه ساكنوها، الأجهزة المنزلية التي توقفت إعادة تصنيع معظمها، الأتربة التي تعلو كل شيء!

أنا أسكن الشارع ومهما حاولت؛ أتربة الشارع تكسو منزلي مهما فعلت.

مطبخي أصبحت أوانيه وأدواته وأطباقه وأكوابه ينقصها شيء ما: يد، غطاء، لون أو رونق.

أصبحت أكره وضع نظارتي لأنني أرى من خلالها الانهيار في كل شيء حولي: الأتربة التي لا تزول، قطع المفروشات، أرجل الأثاث المكسورة، أبواب الدواليب التي أعجزت النجارين عن محاولة إصلاحها، فأتأقلم لما بقي من حياتي مع رؤية ما يظهر أمامي مبعثرًا مكدَّسًا كحال الذكريات في رأسي!

أضع نظارتي عند مشاهدة التلفزيون فقط حتى أرى الترجمة على الأفلام الأجنبية التي أحب مشاهدتها؛ أحب! امرأة سبعينية تقول أحب!

أرتدي نظارتي وأطفئ الأنوار حتى لا تقع عيناي على شيء سوى شاشة التلفزيون فقط.

أصبحت أكره الحركة في البيت، وأحب الخروج لشراء احتياجاتي. آه! ما زلت أقول أحب!

أخرج لشراء احتياجاتي وأعود لترتيبها، أصنع طعامًا منزليًّا بيدين تسكبان نصفه، أتناول طعامًا طازجًا في هذا اليوم فقط، ثم أقضي بقية أيامي أتناول طعامًا بائتًا حتى موعد خروجي التالي.

* * *

استيقظت اليوم بألم آخر جديد في مفاصل يدَي! أكره حقًّا هذا الجسد.

فتحت عينَي مع صوت جرس الباب! تسللت يدي إلى طقم أسناني الذي يصعب عليَّ نطق الكثير من الكلمات بسببه، ولكنه يحمي مَن أمامي من هول رؤية امرأة عجوز بلا أسنان! ثبته جيدًا، فتحت فمي وأغلقته أكثر من مرة للتأكد من ثباته، أحكمت ربط الإيشارب الصغير فوق ما تبقى من شعري الأبيض القصير، وضعت نظارتي فوق عينَي ثم أنزلت قدمَي على الأرض، وبدأت التحرك ناحية الباب.

جرس الباب في العادة يأتيني بقلة صبر من يقف وراءه، أما هذه المرة فكان الواقف خلفه صبورًا خلوقًا، يضغط على جرس الباب ليتأكد فقط من أنني أسمعه، يضغط دون أن يستعجلني.

ظننت أنني لن أصل أبدًا، ولكنني وصلت في النهاية، أزلت قفل الباب الذي لن يحميني إذا حاول أحدهم اقتحام شقتي، ولكنه يشعرني بالأمان على أي حال! أنزلت يدي لفتح الباب، وأول ما رأيته أمامي كان نفسي!

رأيت نفسي وأنا في العشرين من عمري أو أقل!

أكره هذا الجسد! جسد يعجز عن الوقوف بثبات، عينان غائمتان لا تساعدهما نظارتهما الطبية على الرؤية الصحيحة، وعقل تشوش من وحدته الطويلة؛ حتى هيأ لي أنني أرى نسختي الشابة!

عقدت حاجبَي وسألت:

- مين؟

جاءني صوت نسختي الشابة ناعمًا هادئًا:

- إزيك يا تيتة؟

- تيتة!

- أيوه يا تيتة! أنا مارية! مارية بنت علياء، علياء بنتك.

أنجبتني أمي ابنة وحيدة بعد أربعة أشقاء ذكور، بفارق عشرة أشهر بين كلٍّ منهم! حتى أتيت أنا.

تقول أمي إنني السبب في وقف سيل الإنجاب الذي لم يرحمها أبي منه منذ أول ليلة في زواجهما! فكلما أنجبت ولدًا، دفعها إلى إنجاب آخر، أربعة ذكور رفعوا رأس أبي إلى السماء، ثم جئت أنا لأكسر خاطره وأضع رأسه في التراب. يومها غضب أبي وود لو يتخلص مني لولا أنه صاحب قلب منعه من فعلها، فأقسم على أمي بدلًا من ذلك ألا تنجب ثانية، فنجوت.

تحبني أمي لأنني رحمت جسدها من غزو أبي له مرارًا وتكرارًا، فقد عزف أبي عن جسد أمي عدة سنوات غضبًا وعقابًا! عدة سنوات بقيت فيها معها في غرفتها، أنا وهي فقط، ثم قرر أبي في ليلة العودة إليها أن يتوقف عن عقابها، ويبدأ في عقابي أنا! فنزعني من جوارها ووضعني في الغرفة الأخرى التي تضم إخوتي، واستقر هو في الجوار ذاته! عاد إليها وعاد لغزو جسدها، لتسعى إلى إجهاض جنينين نتيجة ذلك الغزو المتكرر، دون أن يعلم أبي وبمساعدة وصفات بعض النسوة، ثم انتشرت بعدها وسائل منع الحمل ووصلت إلى محيطها لتنجو أمي من الإنجاب ومن غضب أبي.

أما أبي فيكرهني لأنني فرقت بينه وبين زوجته عدة سنوات، ولأنني أنا.

مثلت أمي لي درع حماية من غضب أبي، ولكنها تغافلت عن تجاوزات إخوتي معي! تحميني طوال النهار من أبي وتعنيفه، وتتركني ليلًا في غرفة صغيرة مع أربعة إخوة أكبر مني!

يأتي الصباح، أذهب إليها بعد خروج أبي إلى عمله، بعقل طفلة مشوش ولسان لا يملك مفرداته فيعجز عن الشرح، لا تنظر إلى وجهي، لا تتكلم، فقط تصنع طعامًا وتمنحني إياه خلسة، تدخلني غرفتها، تحديدًا شرفة غرفتها التي تبدو كالعلبة، أجلس أرضًا بطبق الطعام أراقب السحب المتحركة فوقي.

عندما ماتت أمي، فقدت درع حمايتي، زوجني أبي مباشرة، أنجبت في البداية ابنتي؛ علياء.

لم أنجب غيرها ولم أحاول، فقط حمدت الله أنها هي، هي فقط ولا إخوة معها. وظننت أنني بتركها دون إخوة قد قدمت لها ما هو مطلوب مني

بالفعل، لقد قدمت لها الحماية في بيت نشأتها، وجدت هذا كافيًا ولم أسعَ إلى فعل شيء آخر!

لتصبح الأم أمًّا؛ يجب أن تكتسب احترام أبنائها. وأنا لم أكتسب احترام ابنتي الوحيدة يومًا! ربما أحبتني لأنني أمها، أشفقت عليَّ حينًا وكرهتني أحيانًا أخرى، ولكنها لم تحترمني قَطُّ.

آخر مرة تلاقت فيها أعيننا، أخبرتني عيناها أنها راحلة، لن تبقى معي ثانية، لا تطيق حياتها مع امرأة مثلي.

غضضت الطرف عن كل حقيبة تظن أنها تخرجها خلسة من البيت، عرفت أنها تختفي يومًا بعد يوم، غرفتها تتعرى من وجودها وسيطرتها. رأيت وعلمت واخترت ألا أفعل شيئًا. حتى لحظة خروجها النهائي؛ شغلت نفسي في المطبخ بصنع شيء لا أذكره، وتركتها تخرج دون نظرة وداع أخيرة!

الغريب، أن فور خروجها وسماع صوت غلق الباب خلفها، شعرت بالراحة!

وقع سماع اسمها الآن بعد كل تلك السنوات من فتاة تحمل ملامحي وتقول إنها ابنتها؛ أمر غريب! دققت النظر مرة أخرى، رددت بصوت هامس:

- علياء!

كأنني أنطق الاسم لأول مرة! بل وكأنني أسمعه لأول مرة، وكأنني لست الأم التي اختارت هذا الاسم لابنتها من الأساس!

نحيت نفسي جانبًا قبل أن تفقد الفتاة أعصابها ويقتلها الخجل والتردد، وقبل أن تنفذ رغبتها في الهرب التي أعلم أنها تشعر بها الآن! نحيت نفسي وأشرت:

- اتفضلي يا بنتي! ادخلي.

تحركت أمامها وتركت لها مهمة غلق الباب خلفها. سرت نحو غرفة الأنتريه، الغرفة الثانية صاحبة النافذة العالية الرفيعة التي تطل على فاصل رفيع بين مبناي والمبنى المجاور، فاصل يسمح بمرور خيط حاد من الضوء يكفي لإنارة الغرفة نهارًا، نافذة عالية رفيعة محاطة بسلك ضيق يمنع دخول كل شيء عدا التراب. التراب الذي غلف خشب الأنتريه والأرضية وأضاع لون السجاد. تحت النافذة تقبع الأريكة الرئيسية التي تحمل كسوتها قطعًا كبيرًا يكشف تنجيدها البالي، جلست على كرسي بجوارها ووضعت يدي على القطع وأنا أشير لها بالجلوس، داعية الله ألا ترى شيئًا آخر في الغرفة!

جلستْ في حماس وكأنها لم ترَ شيئًا بالفعل! لم تتوقف ولم تحرك عينيها في الغرفة، فقط نظرت إليَّ وأنا أوازن جلستي على الكرسي بجوارها في بطء وألم، انتظرت قليلًا لأمنحها فرصة تولي دفة الحديث، ولكنها اكتفت بالنظر إليَّ والتمعن في ملامحي!

- إزيك يا تيتة؟

كررتها مرة أخرى!

- الحمد لله يا بنتي!

أكملتْ بنفس الحماس الذي لم تتخلَّ عنه:

- أنا كنت عايزة أجيلك من زمان، ماما ما كانتش معرفاني السكة! بس أنا عرفت أوصلك في الآخر، سألت لحد ما وصلت، واستغربت أوي من الناس اللي كل ما أسأل حد فيهم على البيت، يتخضوا ويبصولي بطريقة غريبة! ليه كده يا تيتة؟ وليه كانوا بيوصفوا البيت بـ«بيت الحريم»؟!

قاطعت حماسها وسيل أسئلتها:

- تشربي إيه؟

- لأ شكرًا يا تيتة، مش عايزة حاجة.

ثم ابتلعت جزءًا من حماسها وأظهرت جزءًا من ترددها وارتباكها وأكملت:

- أنا كنت جاية أعزمك على فرحي.

- فرحك!

- أيوه! أنا هاتجوز الشهر الجاي وكنت عايزاكي تكوني موجودة.

- تتجوزي إيه يا بنتي! إنتي لسه صغيرة أوي على الجواز!

ضحكتْ بارتباك وهزت كتفيها:

- يا ريت تقولي لماما كده! هي مصممة! شكلها عايزة تخلص مني.

ثم ذهب حماسها وترددها وارتباكها وحل قلقها.

- هتيجي يا تيتة؟

- آجى فين؟ فرحك!

- أيوه!

- يا بنتي، أنا أول مرة في حياتي أشوفك النهارده، وأمك آخر مرة شفتها يمكن كانت قدك كده! فرح إيه اللي عايزاني أحضره! أنا ما حضرتش جواز أمك ذات نفسها!

- ماما وبابا اتطلقوا من زمان! من وأنا صغيرة.

- وعايزة تتجوزي بدري كده! مفيش اتعاظ خالص!

امتلأت عيناها بالدموع فجأة.

- أنا مش عايزة أبقى لوحدي يا تيتة!

هذه الفتاة تبدو وكأنها جاءت لتجلس أمام كاهن اعتراف! تفرغ ما حفظته من كلمات في أقل مساحة ممكنة! جاءتني مشحونة، مشحونة بالمشاعر! باليأس والوحدة! وبأشياء أخرى أجهلها!

سألتها ثانية:

- تشربي إيه؟

هزت رأسها بالنفي، ثم تركت نفسها للنحيب، ربت على ركبتها بيدي واستندت عليها في نفس الوقت لأتحرك ناحية المطبخ لأحضر لها شيئًا تشربه، حاولت طوال الطريق أن أتذكر ما في مطبخي ويمكن تقديمه لها!

إنه التراب الذي يكسو كل شيء!

فتحت الثلاجة، فاضلت بين صنع عصير جوافة من بقايا حبات موجودة، أو صب بعض العصير من علبة معبأة! ذهبت مع الاختيار الثاني؛ أو عدم قدرتي على الوقوف طويلًا هي ما قررت. أخرجت كأسًا صغيرة من إحدى الخزائن وأخرجت من الثلاجة علبة العصير التي كنت قد ابتعتها في أول الأسبوع، أو الأسبوع الذي يسبقه! لا أذكر؛ ولكنني أذكر أنه لم يعجبني طعمه وتركته!

ملأت الكأس الصغيرة ودعوت الله أن ترفض تناولها، ثم وضعت الكأس في طبق وعدت إليها.

في لحظة عودتي شهدت توقفها عن البكاء، وضعت العصير أمامها، مدت يدها وقبضت على الكأس ثم بدأت شرب العصير! أنهت نصف الكأس في رشفة واحدة، وقبل حتى أن أعود أنا إلى جلستي بجوارها!

شكرتني وأكدت أنها في حاجة بالفعل إلى شرب عصير برتقال طازج! إنه عصير برتقال إذن! لهذا لم يعجبني؛ فأنا لا أحب عصير البرتقال.

صمت، وتركتها تستكمل شرب العصير، الذي أكاد أجزم أن صلاحيته انتهت.

أعادت الكأس، ونظرت إليَّ بابتسامة معتذرة.

- أنا آسفة يا تيتة!

- على إيه؟

- على الطريقة اللي بدأت بيها الكلام معاكي.

هذه الفتاة تحمل أكثر من مجرد طلب حضور حفل زواجها، وأنا أكره طرح

الأسئلة، وهي تسعى إلى إقامة حوار طويل لا أعلم كيف أبدأه، ولا ماذا أقول فيه! لقد استيقظت بسؤال واحد: لماذا أبقى حية حتى هذا اليوم؟ والآن يموج عقلي بأسئلة لا أدري كيف أسيطر عليها!

زاغت عيناها قليلًا عندما لم تجد ردًّا مني، فركت كفيها وكأنها تبحث عن طريقة تواصل أخرى، وأنا لا أدري ماذا أفعل لأسقط الحواجز بيننا، وننتقل مباشرة لما تريد قوله أو سبب مجيئها الحقيقي!

ثم تذكرت شيئًا.

- علياء زمان ما كانتش بترضى تحكيلي حاجة عنها إلا لما أقول حاجة عني، كانت بتساومني؛ تقولي احكيلي سر عنك عشان أقدر أحكيلك سر عني، ما كانتش بتآمن تحكي أسرارها من غير ما تاخد ضمان للي بتحكيه! حتى لو كان من أمها!

هزت رأسها تأكيدًا لما أقول وكأنها جربت نفس الطريقة مع علياء؛ أمها! ثم واصلت فرك يديها. عرضت عليها:

- تحبي أقولك سر عني؟

رفعت رأسها وسألت دون تفكير:

- ماما قاطعتك السنين دي كلها ليه يا تيتة؟

- دي حكاية طويلة يا بنتي! خلاصتها إن مامتك عندها حق، بُعدها عني كان أحسن قرار أخدته.

عادت إلى فرك يديها ثم تناولت كأس العصير وشربت نصفها المتبقي على رشفة واحدة أيضًا! ثم نظرت إليَّ وأكدت:

- إيه السر اللي هتقوليه طيب؟!

آه يا بنت علياء! تمامًا كأمك! لا تستسلم أبدًا، لا تمل ولا تترك أمرًا بدأته حتى تنهيه، لا ترحل قبل الحصول على الإجابات، ولا تصمت إلا وقد قيل كل الكلام.

الفرق بينك وبينها أنكِ تسألين بحسن نية، أما علياء، فكانت تسأل لتصيد الأخطاء في الإجابات. تسألين بغرض المعرفة، وتسأل هي بغرض إثبات وجهة نظرها، إثبات صحة ما تعتقد وما تتمسك به.

تسألين بنظرة بريئة تستجدين بها الحديث، وتسأل هي بنظرة لوم وبغض لم أنسَها حتى هذه اللحظة؛ على الرغم من أن ذاكرتي تتلاعب بي يوميًّا! ذاكرتي التي لا تتعب ولا تمل من تكرار عرض صور حياتي أمام عينَي! ما عشته، ما اقترفته! ما سُلب مني، وما جادت به الحياة في غفلة من الزمن!

عندما تكبر في السن، تضيق حياتك وتتقلص نشاطاتك، تتوقف عن فعل

أشياء جديدة، فيظل القديم ماثلًا أمام عينيك، يلومك، يذكرك بمكان زلاتك وأوقات انتكاساتك، تتضاءل إنجازاتك أمام العمر الطويل، فالحياة سيئة، وكلما تقدم بك العمر، ظهر السوء جليًّا ليفسد ما تبقى لك فيها!

أعادتني عينا حفيدتي التائهتان إلى جلستي، شعرت بأنها ربما تكون فرصتي قد جاءتني لتفريغ تلك الذكريات التي يزدحم بها عقلي وتطاردني إلى الآن.

تنهدت وسألتها رغبة في سرد أي سر يريحها، وربما يريحني أنا أيضًا سرده وإخراجه من داخل رأسي:

- عايزة تعرفي الناس كانت بتتخض ليه لما بتسأليهم على البيت هنا؟

نظرت إليَّ بشيء من التعجب! وكادت تنطق: أهذا سركِ! لكنها هزت كتفيها بإحباط:

- اللي تشوفيه يا تيتة!

وضعت أمامها علبة عصير البرتقال لعلها تلاحظ تاريخ الصلاحية الذي أعجز عن رؤيته، والذي حتمًا سيشير إلى انتهاء صلاحية هذا العصير، لكنها بدلًا من ذلك، ملأت كأسها الصغيرة مرة أخرى وبدأت الشرب بسرعة ثانية!

نظرت إليها وأنا أكاد أجزم أنني أرى نفسي، أرى تلك الفتاة التي تقبل بكل شيء مهما كان: الجلوس في بيت يكسوه التراب دون تململ أو شعور بالاشمئزاز، تناول عصير منتهي الصلاحية، الجلوس فوق كسوة أنتريه ممزقة دون امتعاض، النظر إلى امرأة عجوز تتكلم بمخارج ألفاظ غير واضحة بسبب طقم أسنانها.

تذكرني بي؛ بالطفلة التي كانت تنسى بؤس لياليها بطبق طعام من أمها والجلوس في أرضية شرفة كالعلبة تنظر منها إلى السماء، بالشابة الصغيرة التي ارتضت الزواج من أول رجل تقدم لخطبتها، أول رجل طرق باب أبيها وطلبها منه، فأمسك أبوها بيده متشبثًا به وكأنه سيخلصه من مصيبة تقبع في بيته! ارتضت أن تتزوج في شقة أرضي لا شرفة فيها، ارتضت أن تعيش دون رفاهية كان يستطيع زوجها منحها إياها، لكنه رأى أنها لا تستحق، ارتضت أن تحتقرها ابنتها وتوجه لها الإهانات كلما استطاعت إلى ذلك سبيلًا!

ارتضت أن يُقال عنها عاهرة في شبابها ونضوجها، ارتضت وظلت مكانها على الرغم من أنها تستطيع الخروج من كل هذا لو أرادت!

نظرت إليها وتساءلت: لماذا لم ترث من أمها الشعور بالاستحقاق؟ لماذا لا تسير بين الناس وتشعر بأنها تستحق الأفضل؟ لماذا لم ترث من أمها النفور مني؟!

انتظرت أن تنهي كأس العصير الثانية ثم تصرخ متألمة من معدتها، لكنها أنهتها ونظرت إليَّ بابتسامة مشجعة.

- ها يا تيتة! احكيلي بقى! ليه الناس كانت بتتخض لما أسألهم عن البيت هنا؟

- عشان فيه عفاريت.

قلتها وضحكت حتى تراقص طقم الأسنان داخل فمي.

لم تبادلني الضحك وبدأت التلفت حولها!

أكدت لطمأنتها:

- ما تخافيش يا بنتي، مفيش عفاريت هنا غيري.

لم تضحك هذه المرة أيضًا، وابتسمت ابتسامة مرتجفة!
سألتها بوجه جاد مشفق عليها:

- فاضية تسمعي الحكاية؟ دي حكاية طويلة!

- احكي يا تيتة، احكي.

قالتها وقد عاد حماسها الأول!
قررت أن ألجأ إلى حيلتي الأخيرة للتخلص من فكرة الحكي. فكرة الحكي التي ستعيد إحياء ما عشته وما صحبه من آلام. فكرة الحكي التي تجرني إليها حفيدتي خوفًا من التصريح المباشر عن سبب مجيئها، والتي تدفعني إليها رغبتي في التخلص من ثقل الذكريات. أدخلت أصابعي في فمي وأخرجت طقم الأسنان، ووضعته بجوار كأس العصير الفارغة.

- معلش، لو هاحكي، هاحكي من غيره عشان بيبوظ كلامي!

انتظرت نظرة الاشمئزاز! ولكنها بدلًا من ذلك، ابتسمتْ في خجل.

- والله يا تيتة كان نفسي أقولك كده من ساعة ما قعدت! خليكي براحتك.

يا الله! ممَّ صُنعت هذه الفتاة؟ حتى أنا كنت سأجفل قليلًا!
وجدت في النهاية أن لا مفر؛ فبدأت الحكي.

تبدأ الحكاية مع دخول الغاز الطبيعي في المنطقة والحي وتركيبه في البيت.

في أواخر تسعينيات القرن الماضي، أصدر المحافظ قرارًا بإدخال الغاز الطبيعي لعدد كبير من أحياء الإسكندرية القديمة، كان الأمر ضمن مشروع قومي للمحافظة: إدخال الغاز، ورفع كفاءة الأرصفة، وزرع الأشجار أمام البيوت، والتعاقد مع شركة نظافة تضع صناديقها أمام كل منزل وتأتي كل ليلة لتفريغ هذه الصناديق.

كان العصر الذهبي للمحافظة وإعادة إحياء جمالها الحقيقي، حتى في أحيائها الشعبية القديمة.

ليأتي يوم وصول فنيي تركيب الغاز لتقييم البيت والمطابخ وكيفية تركيب الوصلات والعدادات. كان دخول الغاز في حينا الشعبي القديم ذلك كغزو العالم الحديث! لم نصدق أن هذا يحدث، سنستغني عن أنابيب الغاز! رفاهية لم نكن نتوقعها! يوم جاء فنيو الغاز يرتدون الأفرولات الزرقاء الفاتحة، شعرنا بالبهجة؛ نحن النساء.

أما الرجال، فشعروا بالتكدير، سيكون هناك خبط ورزع وحفر، شيء ما سيُقلق روتينهم حتى لو لأيام قليلة. والأدهى من ذلك؛ هناك رجال (عمال) سيدخلون بيوتهم ويتطلعون إلى نسائهم.

في الدور الأرضي، أسكن أنا وابنتي الوحيدة، علياء، بعد وفاة زوجي (والدها). فوقي تسكن أم منة؛ زوجة تعيش مع زوجها وابنتيها منة وميار. فوقها تسكن رباب؛ شابة في أوائل العشرينيات من عمرها، تعيش مع والدها وأخيها الأصغر بعد أن ماتت أمها منذ عدة سنوات. في الدور الأخير، تسكن ميادة؛ عروس جديدة، تزوجت منذ عامين فقط.

يوم دخول العمال والفنيين لتقييم المبنى، وإعطاء التعليمات لتهيئة أماكن حفر دخول مواسير الغاز، وتعليمات ترتيب وضع البوتاجازات بعيدًا عن أماكن وضع عدادات الغاز بمسافة كافية، دخل فني الغاز مطبخ كل واحدة منا وأشار: حركي البوتاجاز من هنا، غيري مكان دولاب المطبخ، احترسي سيمر الحفر من هنا، لو شئتِ غطي هذه الأريكة، ستسقط مخلفات الحفر فوقها.

أول يوم دخول فني تركيب الغاز، كان أول يوم نعرف تقسيمات شققنا

ومطابخنا.

كانت كل شقة لها ترتيب مختلف، ترتيب سيكلف كل امرأة وفتاة منا هدة حيل لمواكبة عملية تركيب الغاز، هدة حيل استقبلناها بسعادة كبيرة؛ سنتخلص من أنابيب الغاز! لن نتعرض لأزمة انتهائها قبل ساعة الغداء، أو قبل وضع براد الشاي صباحًا لرجالنا قبل الخروج إلى عملهم، لن نتعرض لأزمة انتهائها قبل ساعة إفطار يوم في رمضان، لن ننتظر مرور موزع الأنابيب في الشرفات والنوافذ صباحًا والنداء بصوت عالٍ، ستنتهي أزمة أنابيب الغاز بالنسبة إلينا كنسوة.

وهذا أمر كافٍ لتكدير رجالنا! فكيف يُكتب لهؤلاء النسوة شيء من الراحة؟!

في مساء نفس اليوم، بدأنا نسمع أصوات الرجال! زوج أم منة تبرم من عملية نقل دولاب المطبخ التي شغلت زوجته طوال اليوم، ولم تستطع صنع طعام جيد، والد رباب جاءني صوته وهو يلقي اليمين بأنه سيخبرهم غدًا أنهم لا يريدون دخول الغاز، زوج ميادة لم نسمع صوته إلا قرب صباح اليوم التالي.

أما علياء ابنتي، فلم يعجبها الأمر، لم تشعر ببهجتي، فهي تكره البيت والشقة والحي والمنطقة السكنية، لم تجد في دخول الغاز الطبيعي أي مؤشر جيد لتحسين نوعية الحياة هنا! فنحن سنظل نسكن الدور الأرضي الذي لا شرفة فيه ويغرق طوال اليوم بأصوات وتراب الشارع.

في اليوم التالي، بدأ قدوم عمال التركيب. بدأ مدخل البيت يمتلئ بمواسير وأدوات؛ مدخل البيت الذي يقع أمام باب شقتي الذي أصبح مفتوحًا طوال فترة تركيب الغاز. من فرحتي، كنت أتولى مهمة تحضير الشاي للفنيين والعمال أثناء فترة راحتهم في مدخل البيت، وأثناء تقطيع المواسير والوصلات أو تدخين سيجارة فيما بينهم.

فتحت باب شقتي لاستضافتهم، ولدخول الحمَّام إذا أرادوا.

في أول أيام وصول المعدات، نقلت كل فرش المنزل لأترك لهم حرية الحركة، ولأنني دور أرضي، أخبرني أحدهم أنه يجب حفر فتحة تهوية زائدة في مطبخي حتى لا يؤدي أي تسريب للغاز إلى اختناق كل من يسكن في البيت!

فتحة لم أفكر فيها إلا كونها ستكون سببًا في دخول الحشرات والفئران شقتي! فرفضتها في البداية، ولكنه أصرَّ حفاظًا على سلامتي وسلامة أهل البيت!

فتحي باب شقتي طوال فترة عمل فنيي الغاز جعلني بشكل ما شاهدة على كل ما يحدث في البيت؛ خروج ودخول الجميع، سماع أصوات رجال البيت.

فتحي باب شقتي كان سببه الوحيد استضافة عمال الغاز، أما باقي الأبواب فكانت مفتوحة خوفًا من رجالها، فلا يجب غلق باب شقة على امرأة تسكنها مع عامل أو فني.

أم منة لن تستطيع غلق باب شقتها ما دام هناك فني داخل المنزل؛ سيعنفها زوجها إذا عاد من عمله وعلم بذلك. أم منة امرأة مسالمة تمامًا، تزوجت في سن صغيرة، أنجبت منة بعد تسعة أشهر بالتمام من عقد الزواج، ثم لحقتها بعدها بعام بميار. لا تترك ابنتيها من يدها أبدًا، عرضت عليها في إحدى المرات أن تتركهما لديَّ إذا أرادت الذهاب إلى السوق بدلًا من حملهما وحمل أكياس التسوق، كانت ترفض بشدة ولطف؛ مؤكدة أنها تحب أن تأخذهما معها.

تركتهما مرة مع والدهما، لتعود وتجدهما قد تعرضتا للضرب منه، فتوقفت ولم تعُد لتركهما معه ثانية أبدًا. خفَّت المعاناة قليلًا مع دخولهما المدرسة، أصبحت لها حرية الحركة صباحًا، الأمر الذي لم يعجب زوجها وأصبح يمنع ابنتيها من الذهاب إلى المدرسة، لكنها خاضت حربًا ضد غضبه وأصرت على استمرار ذهابهما المنتظم إلى المدرسة.

موسم بداية دخول المدارس؛ كان موسم سماع صوت شجاراتهما المستمرة!

في الصيف يهدأ الرجل! وكأن تعليم ابنتيه يؤلمه بشكل شخصي!

* * *

أما والد رباب، فهو رجل اتسم بالهدوء، الهدوء خارج حوائط شقته فقط!

رجال الشارع يلقبونه بـ«الرجل الحكيم»، ينصح هذا ويسمع ذلك، رجل يتوسط لحل مشاكل الجميع، جميع الرجال فقط! فهو لا يتورط مع النساء.

بعد وفاة زوجته، أم رباب، أصبح خط سير الرجل من البيت إلى القهوة،

وما بينهما ذهابه للمسجد وتأدية الصلوات.

في البيت نسمع صوته عاليًا! هدوؤه خارج البيت يجعل صراخه في بيته أمرًا مشكوكًا فيه للجميع! فلا أحد يراه ولا أحد يعرفه عالي الصوت من الأساس! ولولا أننا نسمع اسم رباب يتردد ما كنا لنصدق أبدًا أنه هو من يصرخ.

زوج ميادة شاب في مثل سنها، معروف عنه إدمانه، يتناول الجميع سيرة إدمانه كأمر معلوم ومقبول. عائلته من أشهر عائلات المنطقة، لديهم العديد من محلات البقالة والتموين التي تنتشر في المنطقة والمناطق المجاورة.

من المعروف أنه أرهق والدَيه بإدمانه، فقررا اتباع النصيحة الأشهَر في هذه الحالة؛ زوجوه! وكأن الزواج مصحة علاجية من الإدمان أو إصلاحية تأهيلية للتخلص من الأبناء الذين يرهقون أهاليهم بفساد أحوالهم! أيًّا كان غرضهما، فقد قررا إصلاح حاله بالزواج! فكانت ميادة.

بنت لا يعرفها أحد، يقال إنها ابنة لأحد العمال في محلات عائلة زوجها، بنت فقيرة، أخت لعدة إخوة وأخوات يعيشون بالكاد، فزوَّجها والدها دون دفع شيء، بل يقال إنه أخذ مالًا ليجبرها على الزواج من شاب مدمن.

تسكن ميادة في الدور الثالث والرابع، كانا أول من أدخل معنى الدوبلكس في شارعنا، بل في منطقتنا بالكامل!

شقة بدورين بأحدث أثاث وأجهزة، وتكلفة زواج ضخمة تحدث عنها الجميع بحسد وغيرة. الكل رأى أن ميادة محظوظة بتلك الزيجة! ولم يقف أحد عند فكرة أن زوجها رجل مدمن!

مرَّ على زواجهما عامان دون أن تنجب ميادة طفلًا يرث أموال العائلة، العائلة التي تبرمت بسبب عدم الإنجاب لدرجة إطلاق شائعات أنها عقيم، فقيرة وعقيم تعجز عن إنجاب حفيد لعائلة تملك كل هذه الأموال.

ميادة نفسها لا نسمع صوتها ولا نراها! فهي لا تخرج من البيت، تأتيها طلبات منزلها أمام باب شقتها الدوبلكس، نسمع فقط صوت رجوع زوجها صباحًا وهو يترنح ويطرق كل أبواب البيت في طريقه إلى شقته، نسمع صوت صراخ أحيانًا مع صوت تهشم زجاج أو خشب، ونسمع الكثير والكثير من نهنهات البكاء.

* * *

في أول أيام وجود الفنيين، فُتحت أبواب الشقق الأربع؛ بابي، وباب أم منة، وباب رباب، وأخيرًا باب ميادة.

بابي أنا فقط كان مفتوحًا للضيافة والونس، أما بقية الأبواب فكانت مفتوحة خوفًا من ظن رجال بيوتهن بهن.

اليوم الأول هو يوم الحفر، يوم صوته عالٍ وترابه كثير. بدأ الحفر بداية من شقة ميادة، ثم توالى الحفر ودقُّ الحوائط للتوسعة نزولًا حتى شقتي.

أحب أوقات الظهيرة، أوقات هادئة دائمًا، يكون فيها الأزواج في أعمالهم والأطفال في مدارسهم والزوجات في مطابخهن.

أحببت تلك الأوقات دائمًا، ظلت أوقاتي المفضلة لسنوات زواجي الأولى. يذهب زوجي إلى عمله وتذهب ابنتي إلى مدرستها لأبقى أنا في بيت مرتب هادئ وقت الظهيرة، ثم أقف في المطبخ وأبدأ صنع طعام الغداء.

في زواجي كنت أشعر دائمًا بأنني امرأة تسير في الحياة وهي تحمل ممسحة ومكنسة وسبَت غسيل! تعيش وهي تمسح دموعها وتكنس أفكارها وتجمع مخاوفها وهواجسها وخيباتها. امرأة؛ جل ما تريده أن تضع ممسحتها ومكنستها وسبت غسيلها أرضًا، وتجلس على أريكة تلتقط أنفاسها دون أن تشعر بأن الحياة ستنهار فوق رأسها فور جلوسها!

لتأتي أوقات الظهيرة وتمنحني هذه الفرصة وهذا الشعور وتلك الطمأنينة! حتى ضوضاء الشارع تصلني هادئة، الشمس ترسل أشعتها مع خيط التراب الذي غلف حياتي، أحببت التراب في هذه الأوقات أيضًا!

إلى أن زل لساني يومًا أمام زوجي عن حبي لتلك الساعة، ساعة الظهرية، التي أبقى فيها بمفردي. بعدها وجدته يفاجئني برجوعه من عمله في تلك الساعة دون إخباري، يستأذن من عمله ساعة ليأتي للمنزل، أو يقرر أن يهاتفني ويسألني ماذا أفعل.

ظل يكرر حضوره واتصالاته حتى فقدت أماني وطمأنينتي خلال تلك الساعة، وحل مكانهما خوف مبهم من حضوره المفاجئ. استمرت هذه الحال حتى مات في النهاية، ثم تدريجيًّا بدأت أعود إلى حبي لتلك الساعة مرة أخرى.

ساعة الظهيرة تلك التي بدأت فيها كل الأحداث.

في أول أيام تركيب الغاز، حضر أربعة فنيين كانوا المسؤولين عن العملية برمتها، اثنان منهم مهمتهما حفر أماكن دخول المواسير؛ رجل في الأربعين وشاب صغير يبدو أنه التحق بالعمل حديثًا، ويرفع عينًا نحو البيت وعينًا نحو نساء البيت. يسير خلف الرجل الأربعيني بخطوة مترنحة يبدو معها وكأنه سيفقد اتزانه في أي لحظة.

في أول يوم، أخرجت صينية الشاي قبل أن يبدأوا عملهم، شكرني الأربعة،

ثم أضاف الشاب المترنح هذا أن كوب الشاي «مظبوط كصانعته»!

عندما حانت ساعة الظهيرة، كان الحفر بدأ في شقة أم منة، ليأتي زوجها دون سابق إنذار وفي غير موعده، صعد سريعًا إلى شقتها بعد أن ألقى نظرة اشمئزاز جانبية إليَّ.

دخل شقته، علت الأصوات وتداخلت ما بين صوت الحفر وصوت زوج أم منة وهو يعنفها لأنها أرسلت ابنتيها إلى المدرسة هذا اليوم.

ثم انتهى الحفر وهدأت الأصوات، ليبدأ صوت الحفر يعلو مرة أخرى، لكن في شقتي هذه المرة.

دخل الرجل الأربعيني يتبعه الشاب ذو الخطوة المترنحة ونظرة العين الزائغة التي يرفعها نحوي بوقاحة. فور دخوله، ألقى دعابة سمجة عن الزوج الذي سيخوض مشاجرة معي بسبب وجودهما.

انتهى عملهما في مطبخي مع فتح مكان إضافي عن بقية الشقق لأنني في الدور الأرضي ويجب التهوية بشكل أكبر، قلت إن المنور سيأتيني بكل الحشرات الزاحفة والفئران بسبب تلك الفتحة! أكد الرجل الأربعيني أن لا أحد يموت من الفئران، لكن يموت الناس من الغاز المسرَّب.

بعد انتهائهما وخروجهما إلى مدخل البيت للملمة أشيائهما وإنهاء مهام اليوم، بدأت تعلو أصوات شجار محتدم بين أم منة وزوجها، خرج العمال والفنيون من البيت في نفس لحظة خروج أم منة من شقتها مطرودة على يد زوجها! فتح باب شقته بعنف وأخرجها دفعًا من الباب وهو يصرخ:

- عليا الطلاق ما إنتي بايتة فيها النهارده!

أخرجها وأغلق باب شقته خلفها. وقفت هي في المسافة الفاصلة بين دور شقتها والسلم المؤدي إلى شقتي، وقفت بملابس البيت وطرحة تظهر نصف رأسها، حافية القدمين بدموع محبوسة ونظرات تائهة.

كنت أنا ما زلت أقف على باب شقتي أودع عمال تركيب الغاز، رأيتها.

- تعالي! تعالي يا أم منة انزلي، تعالي ادخلي.

كررت عبارتي لتدخل شقتي، ولكنها بدت وكأنها لم تسمع، فقطعت أنا المسافة بيني وبينها وصعدت درجات السلم. أمسكت يدها وسحبتها نحوي؛ انتفضت ونظرت إليَّ.

- البنات زمانهم جايين من المدرسة! هييجوا مش هيلاقوني!

- تعالي بس، هسيب باب شقتي مفتوح، هنشوفهم أول ما يرجعوا.

طمأنتها وسحبتها داخل شقتي، جلسنا في الصالة. تركت الباب مفتوحًا لألمح دخول منة وميار. تركتها تهدأ وذهبت إلى المطبخ لصنع شيء تشربه، عند عودتي وجدتها تحتضن ابنتيها بحقيبتَي مدرستهما وتبكي، وضعت أمامها كوب الليمون البارد، ونزعت الفتاتين بنظراتهما الفزعة من بين يديها، وأدخلتهما غرفة علياء وفتحت لهما الكمبيوتر خاصتها، وأجلستهما لمشاهدة فيلم كرتون وخرجت.

عدت إلى أم منة الشاحبة الوجه، ربَّتُّ على كتفها.

- اشربي يا أم منة، اشربي واستهدي بالله.

ناولتها الكوب. بدأت رشف العصير ببطء. أكره طرح الأسئلة، فآثرت الصمت.

هزت رأسها وهي تضع عينيها في كوب الليمون البارد، ونطقت وكأنها تحدث نفسها:

- مفيش فايدة! ما بيسمعنيش مهما قلت، ما بيسمعش غير اللي في دماغه!

ثم رفعت رأسها ونظرت إليَّ.

- والله ما عملت حاجة! وقفت مع الناس وهي بتحفر في الحيطة! جه لقاني واقفة عمل فيلم، زعقلي وبهدلني قدامهم، بعد ما مشيوا فضل يلقح في الكلام! ما استحملتش! هو أنا هاعيش متهانة لحد إمتى؟ رديت عليه، طردني! أروح فين! أنا معنديش حتة أروحها!

ربَّتُّ على كتفها مرة أخرى، أشرت إلى كوب الليمون، دفعتها لاستكماله. اقترحت:

- تحبي أطلع أكلمه؟

انتفضت ثانية إلى درجة كادت تسقط معها كوب الليمون.

- لأ! إنتي لأ! هيتعصب زيادة.

لم أفهم ما تعنيه، لكنني قررت أن أغض الطرف عن ردها وحاولت التهوين عليها.

- الرجالة طول عمرهم مخهم ضيق، ما تزعليش.

- مخهم ضيق، وقلوبهم أضيق!

قالتها وطأطأت رأسها وهي تتنهد تنهيدة حارة.

سألتْ على منة وميار، فطمأنتها بأنهما مستقرتان في غرفة علياء، نظرت

بخوف وتردد تجاه باب الشقة الذي ما زال مفتوحًا ويطل على مدخل البيت، نقلت نظرها بين باب الشقة وبيني حتى فهمت وتحركت لغلقه. عدت إليها، أمنتْ على باب الشقة وغرفة علياء بعينيها مرة ثانية ثم اقتربت مني وقررت أن تفرغ ما في قلبها!

زوج أم منة رجل بخيل، بخيل في المال، يتركها لأيام طويلة بمبالغ ضئيلة للغاية، أيام تجوع فيها هي وابنتاها، يتناول ما تضعه أمامه، يقاسم بنتيه قليل الطعام، فيأخذ النصيب الأكبر. يترك بيته يحتاج إلى التصليح، التوضيب، يترك الأجهزة تعطب والحوائط تفسد من الرطوبة، ملابسها وملابس ابنتيها تبلى من الاستعمال والغسيل. يتركها هكذا شهورًا ثم يمنحها فجأة المال! يصلح المعطوب ويدهن الحوائط ويكسوها هي وبنتيها، يرد فيها الحياة وينير وجهها وكأنها ارتوت بعد فترة جفاف طويلة.

في البداية كانت تفرح بتلك الصحوة، ثم تعلمت أن تخاف منها، تعلمت أنها فخ لذلها وتعنيفها وفرض سلطة أكبر، تعلمت أنها طريقة لابتزازها! لا لزيارة أمك، لا خروج دوني، اقطعي علاقتك مع فلانة. تعلمت أن أيام الارتواء منه هي أيام شرب السم.

بخيل في الفراش أيضًا! يهجرها شهورًا، ينظر إليها بقرف، يلمح بأنها تحمل جسدًا منفرًا لا يثيره، يسخر من ثدييها ومؤخرتها كلما ارتدت قميص نوم يبرز مفاتنها كما سمعت من بعض النسوة وهن يقدمن النصائح لها عندما أفضت لهن بهجرانه لها.

تتزين وتنتظره، يدخل الغرفة ويراها، يرفع نظره ويخفضه على جسدها، فيتحول وجهه، يسخر منها، ثم يجامعها وبعد أن ينتهي منها يوضح أنه يفعل ذلك مضطرًّا؛ فلا سبيل آخر أمامه غيرها وغير جسدها لتفريغ شهوته! لكن في الحقيقة: «أنا قرفان منك».

هكذا! ينتهي منها ثم يلقيها في وجهها بقوة. حتى توقفت عن محاولات إغرائه، فأصبح يسحبها قسرًا؛ تغطي جسدها قدر استطاعتها، تشيح بنظرها حتى لا تلتقي بنظراته وتصم أذنيها عن القذارة التي يُسمعها لها في النهاية.

بخيل في البيت، كزوج وأب، يجلس متأففًا بينهم، من مجرد وجودهم، ينظر إليهم كأنهم يزاحمونه في الهواء الذي يتنفسه، لا يساعدها في أي شيء، لا يطيق مساعدة بنتيه، ما إن تقترب إحداهما منه لسؤاله عن شيء أو

مشاركته شيئًا، حتى يعلو صوته وينهرها بعيدًا عنه.
زوج وأب ملول، رجل بخيل.

* * *

ربَّتُّ على كتفها لتتوقف عن الكلام، فقد فقدت قدرتها على التقاط الأنفاس بسبب البكاء المستمر وتدفق الحكي من فمها.
دفعت لها ما تبقى من كوب العصير، شربته على دفعة واحدة كمحاولة منها للعودة إلى الحياة.
مسحت دموعها بكُم عباءتها، وأنفها مسحته بطرحتها. نظرت إليَّ وسألت بقلة حيلة:

- أعمل إيه؟ أروح فين!

- ما تعمليش حاجة، خليكي عندي لحد ما يهدى وربنا يحلها.

- ما أقدرش! لو عرف إني عندك هيقلب الدنيا زيادة!

لم أفهم كلامها هذه المرة أيضًا! ماذا فعلت لزوجها لأثير أعصابه؟! فأنا لا علاقة لي به، لقد سكن البيت في نفس العام الذي مات فيه زوجي، كان شاهدًا على حضور الإسعاف يومها، ثم أصبح بعدها زوج جارتي الذي أقابله مصادفة! لا يجمعنا كلام ولا وقوف، مجرد جار لا تعامل لي معه! فمتى أصبحت تلك المرأة التي تثير أعصابه دون معرفة أو مواقف سابقة؟
تركت تلك التساؤلات وعدت لأم منة التي تبكي وهي تضع رأسها بين كفيها وعيناها مثبتتان على الأرض!
حاولت التفكير في حل:

- نشوف حد كبير من قرايبه، نكلمه ونخليه ييجي يهديه ويرجعك البيت؟

- لأ ما أقدرش! أخاف أكلم أعمامه! دول الكبار بتوعه، بس ما ينفعش أبوظ صورته قدامهم! ده ساعتها يدبحني!

الخوف! الخوف هو ما يحكم حياة أم منة وعلاقتها بزوجها. هذا شيء أعلمه جيدًا واختبرته كثيرًا وكرهته بشدة.
الخوف هو ما يحكم حياتنا جميعًا نحن النسوة، فما إن نخرج من بيوت آبائنا حتى ندرك أن لا سبيل للرجوع! سنتحمل ما نراه وما نعيشه، لا مجال للشكوى ولا الرفض ولا الهروب! هذا ما نعرفه وما تعلمناه.
فنعيش في الخوف، الخوف من غضب أزواجنا، من أن يعرف أحد ما يحدث في بيوتنا، من المشاكل ومن فكرة أننا ربما نُطرد ونجد أنفسنا في

الشارع مع أطفالنا!

وددت حينها أن أصرخ في وجهها؛ ألا تخاف. لن يحدث شيء، لن يستطيع فعل شيء لها أو معها، يجب أن تتمتع بالجرأة والشجاعة! ولكنني تراجعت في آخر لحظة! لأنني أعلم أن في هذه اللحظة تمامًا، لا تحتاج أي امرأة في حالتها تلك إلى شيء سوى التهوين عليها ومراعاة خوفها.

بدأت تتململ، ورفعت رأسها تجاه غرفة علياء التي تضم ابنتيها، طلبت مني إحضارهما للذهاب.

- هاتيلي البنتين عشان أمشي!

- هتروحي فين بس؟!

- ما أعرفش! بس ما ينفعش أفضل عندك هنا! ناديلي البنتين والنبي خليني أمشي!

- خليكي بس، هاعمل لقمة صغيرة للبنتين، أكيد جعانين، وإنتي اقعدي واهدي وفكري هتعملي إيه على مهلك.

تحركت قبل أن ترد أو تعارض، تركتها في الصالة مع أفكارها ودخلت المطبخ لأحضر مكرونة وبطاطس. علياء تحب المكرونة وتكره البطاطس! فليكن؛ نكتفي بالمكرونة لعلياء، ونكتفي بالبطاطس لمنة وميار. سأتدبر الأمر.

رجعت لأم منة بأطباق الطعام، ناديت على بنتيها، تبع ندائي نداؤها فجاءتا مسرعتين لتناول الطعام.

- وإنتي كمان! مدي إيدك يا أم منة!

- وهو هيتغدى إيه؟! أنا ما لحقتش أعمل أكل!

قالتها في شرود.

هذا ما يفعله بنا الرجال! المسيئون منهم تحديدًا، يغرقوننا في التفكير فيهم والإحساس بالذنب والمسؤولية تجاههم والخوف من عاقبة التقصير في تلبية طلباتهم. المرأة مطرودة من بيتها، لا تعرف ماذا تفعل! ولا كيف تتصرف! وكل ما يشغل بالها ماذا سيأكل زوجها! زوجها الذي طردها!

أثناء تناول الطعام، حضرت علياء؛ ما إن فتحت الباب ووقعت عيناها على أم منة حتى أظهرت شيئًا من الغضب، وحل الضيق.

- تعالي يا علياء! سلمي على ست أم منة.

هزت علياء رأسها وتحركت تجاه غرفتها دون كلام. شعرت أم منة بالحرج وحاولت دفع بنتيها للانتهاء من تناول الطعام سريعًا من أجل الذهاب.

اقترحت عليها ثانية:

- أطلع أكلمه! عشان البنتين حتى! يرتاحوا من المدرسة ويشوفوا مذاكرتهم!

عادت للرفض بشدة. وددت لو سألتها عن السبب! لكنني بدلًا من ذلك، عاجلتها باقتراح آخر:

- طب إيه رأيك نخلي الحاج أبو رباب يكلمه؟! شوية وهيرجع من صلاة العصر؛ نكلمه وهو يراضي جوزك! إيه رأيك؟

شعرت بأنني ألقيت إليها طوق نجاة! تحركت تجاه باب الشقة، فتحته وتركته، وعدت لجلستي بجوارها ننتظر عودة والد رباب من صلاة العصر.

في بيئتنا تلك، أعرف أن النساء لا قيمة لخاطرهن ولا كلامهن، اقتراحي بتدخل الحاج والد رباب، جاء من خلفية أن لا قيمة لكلام أي امرأة مهما كانت درجة قربها أو حكمتها، لكن إذا تحدث الرجل وحكم، حتى وإن كان غريبًا، فحكمه نافذ.

نحنحة والد رباب وصلتني قبل أن أرى دخوله من بوابة البيت. وقفت على باب شقتي وناديت:

- بعد إذنك يا حاج! ممكن كلمتين؟

- خير!

قالها بعد أن وقف مكانه ولم يخطُ خطوة واحدة، ولم يرفع عينيه!

- معلش والنبي! الست أم منة شدت مع جوزها شوية وطردها من البيت وهي دلوقتي قاعدة عندي...

قاطعني بنبرة اتهام:

- هي قاعدة عندك!

- أيوه عندي! بعد إذنك ممكن تستسمح جوزها يرجعها عشان البنتين حتى؟!

- حاضر.

قالها وأسرع خطواته صعودًا لشقة أم منة، سمعت طرقه بعنف على باب الشقة وفتح زوج أم منة الباب، ثم دخلا معًا بسرعة وأُغلق الباب خلفهما بقوة.

عشر دقائق! كان والد رباب يقف أمام باب شقتي وبيده زوج أم منة؛ يطلب خروجها مع بنتيها والعودة إلى شقتهم.

خرجت أم منة مطأطئة الرأس، سحبت نفسها وطفلتيها خارج شقتي دون أن تلقي ولو نظرة واحدة حتى نحوي! واتجهت خلف زوجها صعودًا إلى شقتهم.

ظل والد رباب واقفًا أمامي دقيقتين حتى ضمن دخولهم شقتهم، ثم رفع عينيه لأول مرة وهددني:

- يا ريت حريم البيت ده تسيبيهم في حالهم! ما تتدخليش في بيوتهم! دول ستات محترمة!

لا يحترم الرجال النساء.

تساءلت طويلًا: ما مفهوم الاحترام الذي يريده الرجل من المرأة؟ متى يرى الرجل المرأة امرأة محترمة؟ متى يطلق عليها هذه الصفة؟

فكرت في البداية أن المرأة المحترمة هي التي تقدم الطاعة أولًا (الست اللي بتسمع الكلام). لكنني بعد عشر سنوات من الزواج اكتشفت أن زوجي لم يحترمني لذلك! لقد وقفت أمامه في شجار، أخبره أنني جلست في المنزل، لم أعمل ولم أكون صداقات، قاطعت من بقي من عائلتي، عشت في شقة دور أرضي يدخلها التراب أكثر من الهواء ولم أشكُ! لقد أطعت كل ما أمر به! ليعايرني هو في النهاية بزميلته العاملة التي فعلت ذلك بجوار عملها، يعايرني بما تدفعه لزوجها لتشارك به في مصاريف منزلهما! أما أنا، فبلا فائدة! مجرد عالة عليه.

لم يحترمني يومًا لأنني ربة منزل؛ على الرغم من أن هذا هو الأثر الجانبي لطاعته.

ظننت أن الاحترام هو أن تبقى المرأة محافظة على نفسها دون أن يمسها أحد حتى يأتي زوجها، ففعلت ذلك.

حافظت على جسدي وقلبي وحتى أفكاري وخيالاتي انتظارًا لرجلي الوحيد (زوجي المستقبلي)، لأكون زوجة محترمة تليق به. فأهانني زوجي في كل مرة جمعنا فيها الفراش! أهانني بالنظرة، بالهروب والاغتسال والوضوء فور انتهائه مني وكأن وجوده معي نجاسة يجب أن يتخلص منها! عار يجب أن يمحوه! على الرغم من أنني زوجته! أنا زوجته!

عندما ضاقت بنا الحال ماديًّا، عندما أنجبت طفلة في هذه الظروف، عندما تحملت وصبرت ودبرت شؤون بيتي وحياتي معه؛ ظننت أنني هكذا أصبحت امرأة «محترمة». حتى قال لي في مرة: «إنتي مش عايزة تخدميني كمان؟! أومال لازمتك إيه؟!».

لم يحترمني زوجي لأي سبب، لم يحترمني قَطُّ.

ولم أعرف ماذا يجب أن أفعل ثانية ليحترمني؟! ثم مات وحدث ما حدث بعدها، وجددت فرصتي في الحياة؛ لم يحترمني هو أيضًا! أغلقت بابي خلفي. إلى الآن لم أجد نفسي ولو لمرة واحدة «محترمة» في أعين الرجال!

يقولون الآن امرأة عجوز مجنونة تعيش في بيت هجره ساكنوه، بمفردها. الرجال لا يحترمون النساء، هذا ما أومن به.

- هو قالك كده ليه يا تيتة؟

جاءني صوت حفيدتي يقطع شرودي.

- هو مين؟!

- أبو رباب ده! قالك ابعدي عن ستات البيت عشان هم ستات محترمة! قالك كده ليه؟

- ما أعرفش! ما عرفتش وقتها، عرفت بعدين.

- عرفتي إيه بعدين؟

سألتها وأنا أتناول علبة العصير من أمامها وأرجها لمعرفة كم تبقى فيها:

- إنتي خلصتي العصير؟

ضحكت وأجابت:

- أيوه كله.

- وبطنك كويسة! مش حاسة بحاجة؟

- آه، ليه؟!

- ولا حاجة! أنا لسه ما فطرتش، تيجي نفطر سوا؟

- آه يا ريت يا تيتة.

قالتها باندفاع!

- إنتي ما بتاكليش في بيتكم يا بنتي؟!

لم تجب، نظرت إلى الأرض بحرج. وضعت يدي على ركبتها لأستند عليها وأقف برفق.

- تعالي معايا، نشوف هنفطر إيه!

تحركت ببطء تجاه المطبخ، شعرت بها تتبعني. مطبخي ضيق ولكنه يسعني، ولأول مرة أنتبه لحقيقة أنه يسع وجود شخص آخر! شخص صغير ولطيف كحفيدتي مارية التي لم تشمئز من ظلامه ولا ترابه ولا الزيوت المتراكمة على الحوائط وأسطح الدواليب. لم يصبها «القرف» منه كما كان يصيب أمها في كل مرة تدخله! علياء كرهت مطبخنا، لا تحبه ولا تحب البقاء فيه. أهون عليها أن تظل يومًا كاملًا دون طعام ولا أن تدخل لتصنع طعامًا في نصف ساعة!

حتى وجودها معي وتعلقها بقدمي في طفولتها وأنا أصنع الطعام، لم يكن يعجبها! أترك لها أدوات المطبخ لتلعب بها، أترك يدها تعبث في مكونات الطبخ، ولكنها لم تكن تفرح بكل هذا! لم تتركني هانئة قَطُّ في وقوفي لصنع الطعام!

حتى والدها (زوجي)، اعتاد مشاركتي الوقوف في المطبخ ليعبث بجسدي إذا كان يمهد لمعاشرتي ليلًا، أو يشكو من أحوال عمله إذا كان يمهد لأيام ستضيق علينا الحال فيها من قلة المال! لقد كانت مشاركة وجودهما معي تذكرني دائمًا بحقيقة: كم أن هذا المطبخ ضيق!

فتحت الثلاجة أبحث عما يمكن تناوله، ثم وجهت كلامي لمارية:

- املي البراد وحطيه على النار.

تحركت بحماس كادت أن تصطدم بي بسببه! أو ربما الهواء الذي حركته معها هو الذي سيسقطني! هذا إذا كان في المطبخ هواء من الأساس!

وضعت مارية البراد، وأحضرت صينية صغيرة ووضعت كوبين وسألتني:

- سكرك إيه يا تيتة؟

أجبت:

- معلقة واحدة.

لقمت الشاي كأنها تفعل ذلك كل يوم، كأنها في بيتها. أخرجت أنا قطعة جبن قريش من علبة، وسحبت الخبز الناشف من فوق الثلاجة. ناولتني مارية طبقًا لوضع الجبن، وتناولت مني الخبز لوضعه تحت الماء.

كانت تتحرك بسرعة أعجز عن مجاراتها! أكره هذا الجسد العجوز المتهالك بحركته البطيئة.

عدنا إلى غرفة الأنتريه؛ بطبق الخبز المبلل حد الغرق، وطبق الجبن القريش المطعَّم بالزيت والشطة وصينية الشاي، وجلسنا في نفس الأماكن دون أن أحاول إخفاء قطع فرش كنبة الأنتريه هذه المرة ودون أن تحاول هي.

للحق؛ لقد شعرت بالراحة لوجودها! كانت هي مرتاحة فانتقل لي شعورها تدريجيًّا.

بدأت حفيدتي تناول الطعام؛ تقطع العيش المبلل وتمسح به الجبن، وتضع اللقمة في فمها ثم تنفخ في كوب الشاي وتتناول رشفة منه، إنها حقًّا كانت

تأكل كما لو أنها لا تأكل في بيتها!

- الله يسامحك يا علياء! مجوعة البت!

قلتها وأنا أحادث نفسي ولكنها سمعت.
ضحكت مارية حتى شرقت، فبلعت ريقها برشفة شاي.

- قعدتك هي اللي تفتح النفس يا تيتة.

- مش مصدقاكي.

علت ضحكتها مرة أخرى، ولكنها حرصت على أن تبتلع ما في فمها من الطعام أولًا.

- تيتة!

قالتها وقد عاد وجهها إلى الوضع القلق، وكأنها تذكرت شيئًا ينغص حياتها!

- نعم!

- هتحضري الفرح؟

- يا بنتي إنتي لسه صغيرة! بلا جواز بلا هم!

- مش هينفع يا تيتة، لازم أتجوزه!

بلعت سؤالي، فسألتني هي:

- مش هتسأليني ليه لازم؟!

- ما باحبش الأسئلة.

- ماما مش بتبطل أسئلة.

- آه! عشان كده مش باحب الأسئلة! هي وأبوها ما كانوش بيبطلوا أسئلة!

- طب كملي يا تيتة! حصل إيه بعد ما أبو رباب قالك ملكيش دعوة بحريم البيت؟

قطعت لقمة عيش تشبعت تمامًا بالماء حتى اهترأت، مسحتها بالجبن وتناولتها برفق حتى ذابت في فمي، ثم أجبت:

- كل حريم البيت بعد كده بقوا عندي في الشقة.

اليوم الثاني بدأ مبكرًا، حضر ثلاثة من الفنيين عدا الشاب المترنح، حضروا وبدأوا تقطيع وصلات ومواسير الغاز وإعدادها لتركيبها في مدخل البيت وأدواره وشققه.
بعد حوالي ساعة، لحق بهم الشاب المترنح، جاء حاملًا طعام الإفطار لهم؛

يبدو أنها طريقته لإطفاء نار غضبهم من تأخره.

إنه يتبع نصيحة تقديم الطعام للجميع، الكريم سيشعر بالامتنان والود، واللئيم سيمسك عليه لسانه ويستغله في مضغ الطعام (أطعِم الفم تستحِ العين، ويسكت اللسان أيضًا).

جاء بالطعام، وطرق بيده على باب شقتي المفتوح بالفعل! وما إن رآني حتى طلب مني الشاي! طلبه بطريقة رجل يطلب من امرأته تحضير الشاي لضيوفه.

ذهبت لتحضير الشاي لهم، فأنا لم أتخلص من تأثير أوامر الرجال عليَّ! ما إن يطلب رجل مني فعل شيء؛ أفعله. إذا أمرني، أنفذ.

أثناء خروجي بصينية الشاي، لمحت رباب تخرج من البيت وهي تنظر نحو الأرض وتخرج كأنها تهرب!

تناولوا الإفطار وشربوا الشاي ثم بدأوا عملهم مباشرة. الثلاثة الكبار يعملون، والشاب المترنح يشعل سيجارة تلو الأخرى وهو يتحجج بأي شيء ليرفع عينيه داخل شقتي.

تولى هو إيصال المواسير الأولى إلى شقتي ومطبخي؛ يتحرك في البيت وهو ينشر رائحة سجائره وعرقه الذكوري الغزير.

توالى صعودهم وهبوطهم، دخولهم وخروجهم من شقق البيت، شقتي على الأكثر! أخذت الوقت الأكبر بسبب الشاب المترنح وعمله المرتبك!

لم يخرج من البيت في هذا اليوم زوج أم منة ولا والد رباب، وزوج ميادة يبقى نهاره في البيت كالمعتاد.

لقد قرر رجال البيت البقاء وحماية نسائهم من غزو فنيي الغاز.

الوحيد الذي خرج هو أخو رباب الأصغر؛ خرج بعدها غاضبًا مسرعًا.

مرَّ النهار هادئًا خاليًا من أي أصوات سوى صوت العمال وما يفعلونه، حتى اقتربت نهايته وبدأوا لملمة معداتهم. قبل غلق باب شقتي لهذا اليوم، وجدت رباب تدلف إلى مدخل العمارة لاهثة، تحمل نظرة رعب في عينيها، وجدتني أقف على عتبة شقتي، وأسأل:

- بابا فوق ولا نزل؟!

- لأ ما شفتوش نزل! لسه فوق.

تلفتت وراءها في قلق ونقلت عينيها بين مدخل البيت والسلم الصاعد إلى

شقتها وكأنها تفاضل بين نارين!

- تعالي يا رباب!

قلتها وأنا أفسح مكانًا أمامها لتدخل شقتي. لم تنتظر حتى أنهي جملتي أو أتحرك من أمامها بالشكل الكامل، دخلت مسرعة بتوتر إلى درجة أنها صدمت كتفها بكتفي!

دخلت، وجلست على أريكة الصالة. همست:

- ممكن تقفلي الباب!

أغلقت الباب دون سؤال، وذهبت للجلوس بجوارها في صمت. لم أبادر بالسؤال، جلست صامتة منتظرة أن تبوح بسبب رعبها إذا أرادت!

- أخويا ورايا ولو لحقني هيموتني.

قالتها بين أنفاسها المتقطعة!

- لأ يموتك إيه! مفيش حاجة كده! اهدي بس وإن شاء الله خير.

نظرت إليَّ نظرة إحباط وكأني لا أصدق ما تقوله، وكأني أستهزئ بخوفها! فعاجلتها ببقية الجملة:

- ما تخافيش! مش هيقدر يعملك حاجة وأنا موجودة.

- أنا مش عايزاه يعرف إني دخلت عندك، لا هو ولا بابا!

- إشمعنى؟!

- لو سمحتي يا طنط! إوعديني إنه مش هيعرف! لا هو ولا بابا!

- حاضر يا بنتي! ما تقلقيش.

ثم طأطأت رأسها وقالت بتردد:

- أخويا شافني وأنا ماشية مع واحد. هو كان شاكك فيا وبيراقبني من ساعة ما رجع من الجيش، والنهارده مشي ورايا وشافني، ولولا إننا كنا في الشارع، كان هيموتني.

- ويموتك إنتي ليه! ما يموت اللي ضحك عليكي!

- ما ضحكش عليا! إحنا متفقين على الجواز.

- طب ما يتقدم رسمي!

- بابا مش هيوافق.

- هو بابا يعرفه؟

- لأ، بس هو معندهوش شقة ولا شغل ثابت.

- يبقى بيضحك عليكي!

أكملت وكأنها لم تسمعني:

- بابا مش عايز يجوزني أصلًا!

- إنتي لسه صغيرة يا رباب!

لم ترد، فقط وضعت نظرها نحو الأرض وبدأت في البكاء. تركتها تفرغ شحنة القلق والرعب في بكائها لدقيقة أو يزيد! حتى هدأت.

مسحت دموعها، وبدأت تحكي.

* * *

والد رباب رجل يتغذى على إيذاء أهل بيته، يحتقر النساء، عاش حياته يهين زوجته، أم رباب، ويسخر من ابنته.

رباب شابة ممتلئة قليلًا، لم تسلم من لسانه طوال حياتها، اعتاد عدَّ اللقمة عليها، يتشاجر مع زوجته كلما وجدها تضع أمامها طعامًا: «البنت هتبقى زى البقرة ومش هتلاقي اللي يرضى بيها»، هذا ما اعتاد قوله لأمها.

أم رباب كانت امرأة نحيلة في الأصل، تزوجها دون معرفة سابقة، زوَّجها له أبوه قبل وفاته بشهرين، فظل طوال حياتها يعايرها بضعف جسدها وصحتها، ويشير إلى رجولته وفحولته المكبوتتين اللتين لا تجدان متنفسًا لهما مع امرأة ضعيفة إلى هذا الحد.

أم رباب لم تستطع فعل شيء لبنيتها الضعيفة، لكنها عرفت من تعنيف زوجها أن المرأة ذات البنية القوية ستصبح في أمان من تحقير الزوج؛ فركزت على صحة ابنتها حتى أصبحت طفلة ممتلئة، ولكنها لم تعجب والدها أيضًا! على الأقل في حياة أم رباب.

رجل عنيف في النقد والتربية وفي كل أمور الحياة، حتى في العبادة! فقد كان يوقظهم لصلاة الفجر قسرًا، بدأ تعنيفهم للالتزام في الصلاة منذ صغر سنهم. أصبحوا مع الوقت يرهبون والدهم أكثر من ربهم.

يقلل من ابنه، يتهمه بأنه ضعيف الرجولة، لم يستطع أن يتم بلوغه على الرغم من دخوله الجيش! الجيش الذي تلاعب مع بعض المعارف ليدخله إليه على الرغم من أنه ابن وحيد.

كان يريد التخلص من وجوده في البيت بأي طريقة!

أصاب الأم المرض فوق ضعفها، قضت سنوات زواجها الأخيرة تتمسك بالحياة من أجل ابنها وابنتها، لكن المرض والزوج القاسي العنيف لم

يرحماها، فماتت سريعًا.

بعد موتها تحولت قسوة وعنف الرجل إلى ابنته! أصبح يبقيها دائمًا مشغولة في عمل المنزل، لا تتوقف عن المسح والكنس والغسيل، يستخرج لها مهام من أي شيء وكل شيء، ولا يسمح لها بالراحة أو مجرد النوم!

أصبحت خادمة في بيت والدها، عاملة نظافة في مقابل لقمتها.

هذا ما يفعله بنا الرجال، المسيئون منهم تحديدًا، يستبيحون صحة المرأة وعقلها ووقتها، ولا يقبلون أبدًا بفكرة راحتها أو منحها مساحتها.

على الرغم من هذه الحياة القاسية؛ لم تفقد رباب شيئًا من وزنها، ظلت فتاة ممتلئة القوام! فكان هذا يفقد والدها عقله! كلما وقعت عيناه عليها يمنحها مهمة جديدة لفعلها أو يسمم بدنها بما تأكله! يدخل خلفها، يفتح الثلاجة، يرفع أغطية الأواني ليراقب كمية ما تأكله. يمنعها من تناول أي طعام متبقٍّ بحجة أنه سيتناوله في وقت لاحق.

أصبحت الفتاة آلة تنظيف وطبخ، تأكل القليل، تتعرض للإهانة، ولكنها على الرغم من ذلك لم تفقد أي جرام من وزنها!

* * *

أنهت كلامها وهي تضحك:

- مفيش حاجة هتخسسني!

- إنتي كده زي القمر، إوعي تخسي.

- ياريتني كنت رفيعة زي ماما، على الأقل ما كانش هيبصلي، زي ما كان بيعمل معاها!

قالت جملتها الأخيرة وزاغت عيناها ثم انعقد لسانها! تسلل الندم وكأنها صرحت بما لا يجوز التصريح به.

- أنا لازم أطلع البيت.

- تحبي أطلع معاكي! أكلم بابا أو أخوكي؟

- لأ بلاش إنتي!

قالتها بعد أن انتفض جسدها!

ما خطب هذا البيت؟! ما بي ليخاف جميع نسائه من تدخلي في حياتهن إلى هذه الدرجة؟! تجاهلت انتفاضتها.

- هتعملي إيه طيب؟ أخوكي أكيد طلع البيت!

- هاخد العلقة منه وخلاص!

قالتها بنفس طريقة من تذهب لتناول الطعام!

- عن إذنك، معلش أنا آسفة أوي يا طنط على الإزعاج اللي عملته لحضرتك ده!

- لأ يا رباب ما تقوليش كده! لو عوزتي أي حاجة خبطي عليا.

ابتسمت لأول مرة منذ دخولها، همت بالانصراف. صادف خروجها وصول علياء ابنتي، حيتها رباب بهزة رأس لم تتجاوب معها علياء.
دخلت علياء بأكياس طعام واتجهت إلى غرفتها مباشرة.

- إيه مش هتعزمي عليا؟

لم ترد، دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها بقوة.

في التربية، يقولون إنك تحصد ما تزرعه. ما تزرعه في أولادك، تجنيه.

لا ابن ولا ابنة يقرران في يوم وليلة أن يصبحا عاقين لأبيهما وأمهما. إنهما يردَّان فقط ما قُدِّم لهما.

تظن أنك إذا راعيت أطفالك، اهتممت بطعامهم وشرابهم، ملابسهم وتعليمهم، كرست حياتك لرعايتهم؛ فسيكبرون ويراعونك. تقدم السبت حتى يأتي الأحد ويرد لك كل هذا!

الواقع أن هذا لا يحدث. أولادك لا يعيدون تقديم الأفعال التي سبق أن قدمتها لهم، تضحيات المال لا يتذكرونها، تضحيات الوقت لا يقدرونها.

أولادنا لا يردون لنا سوى الحب. إذا أحببنا أبناءنا بصدق، فسيردون لنا هذا الحب؛ مضاعفًا.

في طفولتي ظننت أن أمي تحبني وتحميني، لكن ظل السؤال: كيف سمحت ومررت كل هذا الانتهاك الذي مر عليَّ من إخوتي؟! عقلي لا يستطيع تصديق أنها لم ترَ ولم تشعر! لقد كان يحدث أمامها! تقف في صالة البيت الضيقة تصنع الطعام، تقف في مكان ترى منه الغرفتين بالفعل، يسحبني أخي من أمامها، ويغلق باب الغرفة! ألم تتساءل؟ ألم تشعر بأن شيئًا خاطئًا يحدث؟ ألم تخف؟ حتى عندما عجزت أنا عن الحكي والشرح لصغر سني ولعدم امتلاك المفردات المناسبة، ألم تفهمني هي؟

لماذا طاوعت أبي عندما كان يصرخ بها: «لبسي البنت دي هدوم واسعة!»؟ لماذا رأت أن العيب فيَّ وفي جسدي الممتلئ، وليس العيب في نظرة أبي التي لا يجوز أن تكون هكذا؟

لماذا رأتني بنفس الطريقة التي رآني بها إخوتي! أم لم تكن تراني أمي من الأساس؟

لماذا كنت أشعر أحيانًا بأنني سبب من أسباب تعاستها مثلهم؟

أسئلة لم أجد لها إجابة لسنوات طويلة، ولم أستطع الاعتراف لنفسي بحقيقة أن أمي لم تحبني إلا بعد سنوات أطول!

في التربية، لن تحصد سوى الحب الصادق الذي زرعته في نفوس أولادك، الحب فقط ولا شيء آخر، وأمي لم تحبني.

وأنا لم أحب ابنتي علياء، لم أعرف كيف يكون الحب الصحيح.

أحببت كونها ابنتي، أحببت علياء ابنتي فقط، لم أحبها ككيان مستقل، كإنسان مستقل بذاته.

بمعنى؛ إذا لم تكن ابنتي، فلم يكن ليجمعنا أي سياق في هذه الحياة. منذ طفولتها وهي تصيبني بالإحباط، طفلة صعبة الإرضاء، مراهقة عنيفة في مشاعرها، رافضة لكل شيء، ولا يعجبها شيء. غاضبة دائمًا لسبب ما، لديها مبرر دائمًا للكره، كره أي شيء! بدءًا من بيتنا هذا، وصولًا إلى كرهي أنا شخصيًّا.

لديها القابلية لتصديق كل ما هو شر، اتباع كل ما هو مؤذٍ، عيناها لا تريان سوى الخطأ والنقص.

علياء لو لم تكن ابنتي، لهربت منها منذ طفولتها.

أصدق أنني لم أقصر في حقها كابنتي، وأنني كنت الأم التي من الجيد الحصول عليها. جنبت مشاعري نحوها وركزت على كوني أمًّا ومسؤولة، ولكن كما قلت؛ لا شيء ستحصده من أولادك سوى الحب، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم أقدمه لعلياء.

* * *

قاطعت مارية سيل الذكريات بسؤالها:

- هي العلاقة باظت بينك وبين ماما إمتى يا تيتة؟

أجبت:

- من ساعة ما أبوها مات.

- جدو!

- جدو!

ضحكْت فتعجبت مارية. أوضحت:

- أصل مش لايق عليه حكاية جدو دي خالص!

- هو إنتي وجدو اتجوزتوا إزاي يا تيتة؟! ماما عمرها ما حكتلي حكاية جوازكم!

- عشان أنا عمري ما حكيتها.

- طب ما تحكيهالي!

- الحكايات كده هتدخل في بعض!

- ليه بس؟! ما حكايتك تعتبر من ضمن حكايات البيت ده! إحكيلي يا تيتة!

تنهدت بقلة صبر امرأة عجوز تجاوزت السبعين من عمرها. نظرت إلى

أطباق الإفطار الذي تناولناه وحوافها التي رُدمت بطبقة تراب جاءت من الشارع، طبقة لم ترَها أو تنتبه لها مارية! ولكنني رأيتها على الرغم من نظري الضعيف. أنا أعلم بوجودها حتى وإن لم يسعفني نظري الحالي لرؤيتها.

تحركت ببطء للملمة طبق الجبن والخبز وأكواب الشاي الفارغة، مدت مارية يدها بسرعة لتسبق يدي.

- عنك يا تيتة!

- تيجي نعمل الغدا سوا؟

- بجد يا تيتة؟ يا ريت!

- مش بتاكلي في بيتكو، مش بتاكلي في بيتكو! خلاص أنا اتأكدت!

ضحكت بطفولية وبصوت عالٍ، وأجابت وسط ضحكاتها:

- طب والله قعدتك هي اللي تفتح النفس يا تيتة.

- لسه مش مصدقاكي!

لملمت الأطباق والأكواب وتركتني أسبقها للمطبخ. سارت ورائي مراعية بطء خطواتي، وهمست في أذني:

- وحكاية جوازك من جدو يا تيتة!

- هاحكيهالك وإحنا بنعمل الأكل.

مطبخي ضيق، لكنه يسعني، يسعني بأحزاني. مطبخي هذا لم يعرفني سعيدة طوال حياتي الزوجية. عرف فقط امرأة حزينة هاربة، وما قبلهما فتاة صغيرة ترى في الزواج نجاتها!

النجاة من بيت لا يحتويها ولا يشعرها بالأمان، بيت لم يكن بيتها، هي مجرد ضيفة. حتى يأتي عريسها، ضيفة تخدم من فيه حتى تخرج إلى بيتها.

تكبر البنت منا وهي لا تشعر بالانتماء، فالبيت الذي تنتمي إليه لم تذهب إليه بعد! تنتظر الزوج والزواج لإصلاح مسار حياتها غير المستقيم هذا! تتزوج لتدخل بيتًا تعلم أنه يجب أن يصبح بيتها، تسكن في حضن رجل بيقين أنه حضن الأمان الذي حُرمت منه طوال حياتها.

تتزوج الفتاة بعقلية من على وشك تحقيق أهم إنجاز في الحياة! فتصطدم بحقيقة أنها كانت تصدق خدعة كبرى، فلا انتماء هنا أيضًا ولا أمان.

في البداية لم أدرك كل هذا! بل لم أتعرف حتى على سبب حزني الحقيقي! هناك سبب خفي عجز صغر سني عن توضيحه لي. لكن في كل يوم يزيد عمري يتضح لي ما سبب حزن هذه المرأة الآن! هذه امرأة لم تعرف الحب، لم تحب أحدًا، ولم يحبها أحد.

لم تستطع أن تحب زوجها على الرغم من أنها أقنعت نفسها بحبه لسنوات عديدة، لم تستطع أن تحب ابنتها على الرغم من رابطة الأمومة المفترضة، لم تنجح في دفع زوجها أو ابنتها إلى حبها! امرأة تعيسة لم تعِش مشاعر صادقة! عاشت سنوات زواجها وأمومتها تفتعل مشاعر لم تملكها! فضاق عليها مطبخها بزيوته، وغباره وأتربته، وشروخ وصدأ أوانيه، وبهتان حوائطه، وتكسر أوعيته، وتهدم خزائنه.

* * *

سبقت مارية إلى المطبخ، وفتحت الثلاجة. سألتها:

- تاكلي إيه؟

- أي حاجة يا تيتة! اللي عندك.

- عندي فراخ وكفتة، وتقريبًا كيس لحمة! مش متأكدة!

- كفتة.

- ونعمل مكرونة؟

- بصلصة كتير حامية!

أخرجت كيس الكفتة والطماطم التي أوشكت أن تفسد وعلبة صلصة. أغلقت الثلاجة فوجدت أن مارية قد أخرجت كيس المكرونة، ووضعت إناءً به ماء السلق على النار! إنها تتحرك بسرعة الصاروخ!

بحثت بعينَي عن الخلاط فوجدتها تضعه أمامي وكأنها تقرأ أفكاري! وضعته أمامي، وتناولت من يدي كيس الطماطم، أفرغتها في طبق مشروخ وبدأت غسلها وفصل الحبات الفاسدة تمامًا والحفاظ على ما يمكن إنقاذه!

علقت بتساؤل:

- إنتي إيدك في المطبخ علطول بقى!

- ماما مش بتحب تطبخ، وأنا باتعب من أكل الشارع.

- مش بتاكلي في بيتكو أهو! ما كنتش باقول أي كلام!

لم تضحك هذه المرة! وكأنني الآن لم أكن أمزح، أو ربما لأن الأمر كان حقيقيًّا تمامًا، ولم يكن هناك مزاح منذ البداية!

وضعت الطماطم في الخلاط بعد تقطيعها، علا صوته ليغطي على أحزاننا المشتركة.

أنهت عصر الطماطم وبدأت تقطيع البصل داخل إناء به ملعقتا زيت. وجدت أنها تولت عملية الطبخ بمفردها! فسحبت كرسيًّا بلاستيكيًّا من ركن قصي في المطبخ، وجلست في مكان لا يعطل حركتها قدر استطاعتي.

ابتسمت لي وعادت إلى سؤالها بإلحاح:

- حكايتك مع جدو يا تيتة لو سمحتي!

تزوجت صغيرة. سبب إقبالي على الزواج في سن صغيرة هو رغبتي الأساسية في معايشة أنوثتي وخيالاتي الجنسية. أردت أن أشعر بنفسي بين أحضان رجل؛ هذا كل ما كنت أفكر به! أريد أن أشعر بحرية اكتشاف جسدي مع رجل، ويكون هذا الرجل زوجي!

وجودي طفلة أنثى بين أطفال ذكور يخطون أولى خطواتهم في عالم المراهقة واكتشاف الرغبة، أجبرني على أن أكون أنا باب اكتشافهم الأول، مطالعة الأجساد العارية أثناء تغيير الملابس، هذا جسد مختلف، ماذا يفعل وما دوره؟!

مشاركتي الفراش ليلًا مع إخوتي والتي اختبرت فيها تلامس الأجساد، الضغط، تسارع الأنفاس، الاحتكاك، الحركات المتتالية، وثباتي أنا!

في الليالي التي استطعت فيها الحركة، هربت إلى غرفة أمي متسللة لعلي أعود إلى حضنها الذي نزعني منه أبي، لأفتح الباب برفق وأطالع الجسدين المتشابكين تحت الضوء الخافت!

أبي الذي يقضي يومه يعنف أمي وإخوتي وأنا، يقترب إلى هذه الدرجة من أمي ليلًا! أخي الذي يلين صوته ويدعوني للعب برفق فقط عندما يرغب في ملامسة جسدي!

هذه إذن هي الطريقة الوحيدة التي تجمعنا مع الرجال لنرى أفضل ما فيهم! هذه هي العلاقة الوحيدة التي تجمع بين الرجل والمرأة في الأساس!

عندما فارقنا الطفولة وسنوات المراهقة الأولى، وكبرنا لندرك ما كنا نختبره صغارًا بعقول قاصرة وفضول جسدي خالص، احتقرني إخوتي، لم أعد أختًا لهم، كنت فقط خادمة. أمي مرضت وعزف عنها أبي هذه المرة نفورًا، عدت إلى غرفتها وحضنها بجسدها الهزيل. ماتت سريعًا، فأصبح وجودي في بيت أبي غير محبب على الإطلاق.

لم تغير حقيقة إدراكي لخطأ ما اختبرته في طفولتي، من قناعة ما شعرت به بالفعل! لقد اقتنعت في مراهقتي أن الجنس هو الحب. ليسا وجهين لعملة واحدة مثلًا، لا! هما نفس الشيء ولا فصل بينهما أبدًا.

تقدم لي زوجي، فور رؤيته تخيلت نفسي أقبله وأمسك يده وأتحسس وجهه، أعجبني التخيل فوافقت على الزيجة.

تزوجت بعد فترة خطوبة قصيرة، يوم زفافي لم أهب أو أخف أو أتوتر، لقد أردت أن يحدث ذلك! أردته بشدة! هذه هي المرة الأولى المنطقية، الطبيعية، العلاقة التي لا يشوبها عيب ولا هروب ولا خوف ولا مشاعر معقدة. وسط ما كنت أسمعه وقتها من فتيات العائلة اللاتي سبقنني للزواج؛ عن خوفهن وعجزهن! أقبلت أنا بكل جوارحي للوجود مع زوجي. فتحت له قلبي وباعدت بين ساقَي بشغف ورغبة حقيقية في اختبار التلامس الجسدي مع رجل، وليس أي رجل! إنه زوجي؛ الرجل الوحيد الذي يملك الحق في فعل ما يشاء بي، الوحيد الذي يملك الحق في رؤيتي عارية، مستثارة، الوحيد الذي يستحق! يستحقني!

أقبلت عليه وسلمت له نفسي وروحي برغبة حقيقية في إسعاده وإسعاد نفسي. وافقت على كل ما طلبه مني، جاريته في كل خيالاته الجنسية، شاهدت فوران رغبته وخروجها عن السيطرة وفقد تحكمه في نفسه؛ أحببت الأمر في حينه ليفاجئني هو بابتعاده عني والذهاب للاغتسال سريعًا! ثم العودة لإخباري أننا لن نفعل ذلك ثانية! أتشتت من ردة فعله تلك! بعدها نعود لفعل ما أعلن أنه لن يكرره ثانية! احترت من معاملته ولم أفهم. ما به؟ ماذا فعلت؟ أين أخطأت؟ لقد منحت نفسي لزوجي عن طيب خاطر، منحت نفسي بسعادة ورضا! أين أخطأت لألقى معاملة تقول إنني متهمة؟

أين أخطأت ليشكك في سلوكي وأخلاقي، ماذا فعلت لأثير غيرته المجنونة لمجرد خروجي من البيت، انشغالي عنه، مجرد الصمت بجواره؟!

لقد تحولت رغبته فيَّ لهوس! فأصبحت غير قادرة على الوقوف أمامه، لم يتح لي رفضه لأي سبب أو تحت أي حجة! رفضي له معناه أنني حصلت على ما أطفأ نار رغبتي من رجل آخر غيره!

بعد عدة سنوات من الزواج وتقدمي في العمر، وصلت إلى درجة نضج معينة تؤهلني للاعتراف بحقيقة الطريقة التي ينظر إليَّ بها زوجي؛ اعترفت لنفسي أن زوجي يراني عاهرة. امرأة هائجة لا تستطيع التحكم في رغبتها، امرأة لا مانع لديها من معاشرة الحيوانات حتى لإشباع رغبة جسدها. لم أستوعب رؤية زوجي لي هذه في البداية، عاندتها، رفضت الاعتراف بها، التعامل على أساسها. ظننتها في البداية مزحة سخيفة يضحك بها عقلي عليَّ لقبول شكه وغيرته، تلميحاته وطلبه المتواصل لي بشكل هستيري

أودى بي في النهاية إلى نفوري منه. فلا شيء ينفر المرأة من العلاقة الزوجية؛ قدر إحساسها بأنه أمر مفروض عليها، أمر واجب لا تستطيع رفضه.

فقدت رغبتي فيه تمامًا، لم أعد أريده ولا أريد غيره. كرهت الرجال وكرهت جسدي. قضيت أيامًا وشهورًا؛ بل سنوات! أسأل نفسي سؤالًا واحدًا لا إجابة له: أين أخطأت وماذا فعلت؟! إنه زوجي، لقد أردت إسعاده وإسعاد نفسي معه، منحته نفسي وجسدي دون تفكير أو حساب، أردت أن ألبي احتياجي الجسدي مع الرجل الوحيد المسموح لي بفعل ذلك معه! أين أخطأت إذن؟! ماذا كان المفروض مني فعله؟! اتهامه لي بأنني امرأة متاحة، سهلة، تمنح نفسها للجميع أصاب قلبي بجرح لم يلتئم، فأنا اخترت بإرادتي ألا أسمح لرجل قبله أن يمسك يدي حتى! نذرت نفسي له! له فقط! حتى قبل أن أعرفه! فما كان منه سوى رؤيتي بهذه الطريقة المهينة! وكلما تقدم به العمر؛ تتحول غيرته إلى شك وشكه يتحول إلى هوس، وهوسه إلى جنون! جن زوجي تمامًا.

قضيت سنوات في محاولات إقناعه أنني لست هذه المرأة، سنوات قضيتها في محاولات إثبات أنني امرأة مخلصة لا ترى سوى زوجها ولا تمنح نفسها لغيره، سنوات وسنوات أفنيتها في محاولات الدفاع عن نفسي، الدفاع عن نفسي من أمر لا أعرف حتى الآن ما خطئي فيه!

حتى جاء اليوم الذي فاض الكيل فيه!

في يوم عودتي مع ابنتي من حفل تكريمها لحصولها على مجموع مرتفع في الثانوية العامة، عدنا بسعادة غامرة لأجده في انتظارنا متأهبًا للشجار وإلقاء الاتهامات المعتادة؛ يومها لم تطلني الاتهامات أنا فقط! بل ضمت ابنتي علياء! كان يشير لها ولي ويؤكد أنني سأجعلها مثلي! كان يصرخ بعلو صوته أننا أم وابنتها تعاشران الرجال من كل شكل ولون!

لم أتمالك نفسي يومها، لم أحاول ككل مرة الدفاع عن نفسي وشرح حالي له، لم أحاول لأول مرة منذ ثمانية عشر عامًا من الزواج تهدئته.

غلبني الغضب لأول مرة في حياتي معه، فنظرت في عينيه وبكل غل وكره الدنيا أخبرته أنه محق. نعم! أنا امرأة هائجة تعري نفسها أمام أي رجل، نعم! لقد خنتك مع كل رجل تعرفه ولا تعرفه، نعم! إنك لم تكن كافيًا لي يومًا، لم تشبع رغبتي قَطُّ، أنت لست كافيًا. نعم! أنا كنت مع رجل غيرك، بل

مع رجال آخرين، رجال لا أذكر عددهم ولا أسماءهم ولا وجوههم، فأنا لا أهتم سوى بحجم عضوهم. نعم! أنا هذه المرأة الموجودة في رأسك! فماذا ستفعل؟!

لم يرد، لم يرد هذه المرة ولا في أي مرة تالية، لقد سقط ميتًا في لحظتها (طب ساكت)، أمامي وأمام ابنته التي سمعت أمها لأول مرة تلفظ كل قباحات العالم، سمعت أمها تكشف سترًا وتهتك عرضًا بكل ثقة.

يومها مات زوجي، وانتهت علاقتي بابنتي إلى الأبد.

درسنا في سنوات تعليمنا الأولى حالات المادة الثلاث؛ الصلبة والسائلة والغازية.

في مثال الماء، الثلج يعبر عن الحالة الصلبة والذي يتحول للحالة السائلة بالانصهار، ثم يتحول للحالة الغازية بالتسخين.

المشاعر لها حالات كحالات المادة! المشاعر كالماء.

لقد عشت حياتي أنظر إلى المشاعر كقطع ثلج أراها وأعرف وجودها، ثم تزوجت فتحولت تلك المشاعر إلى ماء سائل، ولكنه ظل بالنسبة إليَّ ماءً مثلجًا، ثم أنجبت وأصبحت أمًّا! الأمومة أن تضع مشاعرك (الماء) في قدر على النار وتتركها تغلي.

كنت أظن أنني تخلصت من مشاعر الغليان والقلق تلك مع خروج ابنتي من حياتي! لكنني أعدت اكتشافها في اللحظة التي صمتُّ فيها عن الحكي عن زواجي مع حفيدتي! تجمدها أمامي، أصابني بالرعب حد الغليان.

على صوت تكتكة طعام يجف فوق نار عالية ورائحة احتراق ودخان بدأ يتصاعد.

- الكفتة! مارية! يا بنتي الكفتة هتتحرق الحقي!

أفاقت حفيدتي على تنبيهي لها لمحاولة إنقاذ الكفتة التي لن أستطيع تناولها على أي حال! لقد جفت تمامًا! أطفأت مارية النار سريعًا وأخرجتها في طبق وهي تحارب السخونة بكل قوتها. وضعت الطبق ونظرت إليَّ!

لم أفهم طبيعة نظرتها! لم تكن صدمة أو لومًا أو عتابًا! كانت خليطًا لم أفهمه؛ من اكتشاف أمر جديد صادم وتصحيح فكرة خاطئة مع تساؤل عن أمر خاص في رأسها! لم تكن نظرتها محددة!

أكره هذا الجسد ونظري الضعيف الذي لم يسعفني لاكتشاف حقيقة انطباع حفيدتي عما رويته على مسامعها منذ قليل.

- ماما قالتلي إنك السبب في موت جدو يا تيتة!

لم أفاجأ، هذا رأس علياء وهذا تفكيرها، لقد صدقت ما قلته لوالدها هذا اليوم! لم ترَ أنني كنت أفرغ القيء الذي قذفه بداخلي طوال سنوات زواجنا! لم ترَ يأسي وغضبي! لقد أخذت كلامي واعتبرته حقيقة وصدقته.

- لأ يا بنتي! مش أنا السبب، جدك كان تعبان في دماغه، دماغه هي اللي موتته.

تصاعدت رائحة الصلصة بعد اكتمال تسبيكها تمامًا، أطفأت مارية النار وبدأت غَرْف طبقَي مكرونة ثم وضع كمية صلصة كبيرة على كل طبق، ناولتني طبق الكفتة لأسبقها إلى غرفة الأنتريه، ووضعت ملعقتين في طبقَي المكرونة وتبعتني.

عدنا إلى غرفة الأنتريه، وضعت طبق الكفتة الجافة التي لن أستطيع تناولها، ووضعت مارية طبقَي المكرونة التي تفتح الشهية، جلسنا وبدأنا تناول الطعام.

سألت بتردد:

- هي كل الرجالة كده يا تيتة؟!

ثم أكملتْ:

- زي جدو كده أقصد! شايفينا بالطريقة دي؟

أجبتها دون رفع رأسي عن طبق المكرونة:

- أيوه يا بنتي، كلهم تعبانين في دماغهم.

- يعني العيب مش فينا!

- لأ! إحنا زي الفل، كلي يا مارية، تسلم إيدك على المكرونة!

عادت إليها ابتسامتها وأقبلت على الطعام بشهية مفتوحة أنهت بها طبق المكرونة وطبق الكفتة كاملين بمفردها.

أعتقد أن أكثر ما افتقدته في حياتي هو الونس.

إحساس المشاركة هذا بأن هناك أحدًا آخر هنا يشاركك حياتك! زوجي كان يراقب حياتي وابنتي كانت تكرهها، وجودهما كان يعزز شعوري بالوحدة.

الوحدة التي كبرت فيها داخل شرفة كالعلبة، وظلام غرفة صغيرة تجمعني بأربعة إخوة ونظرة متسللة من باب موارب.

كبرت مع أم لا أستطيع التحدث معها، وإخوة لا يعرفون آداب الحديث من الأساس. البيت المزدحم الضيق لم يكن قَطُّ يوحي بالمشاركة قدر إيحائه بالنزاع!

بعد زواجي، وعلى الرغم من وجود زوجي وابنتي، ظلت الوحدة تغلف حياتي، فدوري مع زوجي كان عبارة عن محاولة تهدئة ظنونه وشكوكه، ودوري مع ابنتي كان محاولة تأدية واجب الأمومة الذي يضغط على أعصابي.

ثم مات زوجي وتركتني ابنتي، فأصبحت الوحدة ملموسة وليست وحدة داخلية فقط، لكنها أصبحت وحدة هادئة ومسالمة لا نزاع فيها ولا هروب ولا محاولة تأدية أدوار لا تناسبني، وحدة ليس مطلوبًا مني فيها بذل الجهد، فأحببتها وبقيت فيها لما يقرب من ثلاثين عامًا! حتى نسيت معنى الونس والمشاركة! لم أعرف أنني أفتقدهما بالفعل إلا في هذه اللحظات التي جلست فيها على كرسي الأنتريه أستمع إلى صوت حفيدتي مارية وهي في المطبخ تحضر لنا شايًا بعد الغداء.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، أصرت أن تحمل الأطباق وتغسلها وتحضر الشاي، لم أعترض أو أعاند، جلست مكاني وتركتها تتولى هي المطبخ.

لم أتذكر متى آخر مرة حدث ذلك! أن أجلس هنا في الخارج، وهناك امرأة أخرى في المطبخ تتولى المهام عني! كان هذا مكاني الذي لم أفارقه قَطُّ!

جلوسي على كرسي الأنتريه الآن حالة جديدة لم أختبرها من قبل! حالة ونس، ونس أفتقده.

عادت مارية بكوبين من الشاي، نفس الكوبين اللذين شربنا فيهما شاي الإفطار، غسلتهما وصبت فيهما شايًا جديدًا.

عادت لحماسها:

- ها يا تيتة! كملي!

- ما أنا حكيتلك حكاية جدك!

- لأ، كملي حكاية البيت.

- آه! إحنا وصلنا لحد فين؟

- لحد ما رباب طلعت تاخد العلقة من أخوها!

- آه! افتكرت! رباب دي حكايتها حكاية! بصي يا ستي.

عمليًّا؛ كان اليوم الثالث هو اليوم الأخير لعملية تركيب ما يلزم لدخول الغاز للبيت؛ يوم إتمام الوصلات الداخلية وتركيب العدادات داخل الشقق.

ودون أن أعلم، كان اليوم الأخير في حياتي كما كنت أعرفها.

جاء العمال؛ ثلاثتهم، بعدها جاء رابعهم الشاب المترنح بطعام الإفطار، لم أنتظر حتى يأمر بصنع الشاي؛ صنعته قبل مجيئه.

بدأ العمال إتمام الوصلات الداخلية بعد تناول الإفطار والشاي، بدأ العمل من شقة ميادة الدوبلكس كالعادة، ثم هبوطًا إلى بقية شقق المنزل. بعد بدء عملهم بقليل، حضر أهل زوج ميادة واجمين، السبب المعلن لحضورهم كان الوقوف على رأس الفنيين والعمال أثناء إتمامهم لعملهم. أما السبب الحقيقي فكان بسبب شكوى ميادة من زوجها الذي أنشأ علاقة صداقة مع الشاب المترنح للاتفاق معه على إمداده بالمخدرات. الشاب المترنح، سبب عدم اتزانه هو الإدمان. هذا ما أدركه زوج ميادة فور وقوع عينيه عليه، فقرر عقد صداقة معه للدخول معه في حلقة التحشيش التي أراد إقامتها في شقته الدوبلكس.

هذا ما عرفته من ميادة نفسها! فبعد حضور أهل زوجها اشتدت المحادثة، فخرجت من بينهم سريعًا ونزلت على سلالم البيت تقدم قدمًا وتؤخر أخرى، وترى خروج رجل من كل شقة تصادفها لمعرفة سبب الشجار والصوت العالي، حتى وصلت أمام شقتي وطرقت الباب المفتوح، فخرجت إليها!

دخلت ميادة وجلست على أريكة الصالة تفرك بيديها. أول ما رأتني قالت دون مقدمات:

- ماسكين في بعض فوق!

- مين ماسك في مين؟

- جوزي وأهله والواد بتاع الغاز ده، أخدوه في رجليهم، وباقي العمال بيخلصوه من بينهم ورجالة البيت كلهم طلعوا فوق!

- وإنتي خايفة ليه كده!

سألت بتوتر هذه المرة!

* * *

ميادة فتاة فقيرة تزوجت من أجل المال. لم تخجل من ذكر ذلك أمامي، فهي خرجت من أسرة معدومة، لا تتمتع بالجمال الباهر ولكنها تظل جميلة.

فتاة صغيرة أصبحت زوجة لمدمن. فور زواجها انبهرت بالبيت: الأجهزة الكهربائية، والأثاث السليم الذي لا يعاني شرخًا ولا كسرًا ولا بَهتانًا. أحبت بيتها؛ بل عشقت كل ركن فيه، كانت تستيقظ صباحًا لتلميع كل شيء، مسح الأرضيات والحوائط، صنع الطعام بمكونات تراها لأول مرة. كانت فتاة صغيرة تلعب في بيت أحلامها، وظلت فتاة لمدة عامين، عمر زواجها. ففي كل ليلة يتمالك زوجها نفسه قدر استطاعته، يقف على قدميه، يغلق الباب عليهما، يقترب منها ويحاول معها، ليفشل في النهاية.

في البداية كان يقدم اعتذارات، ثم أصبح يتهمها بأنها السبب؛ هي التي لم تستطع إثارته كما يجب، ثم في النهاية أصبح يدمر ويحطم كل ما يقع تحت يديه. رأت ميادة بيت ألعاب أحلامها يتحطم كل يوم أمام عينيها، شعرت بالحرمان؛ الحرمان من احترام رجل يقال إنه زوجها، تُهان منه وتتعرض للنبذ من عائلته لأنها لم تنجب حتى اليوم! الحرمان من حقوقها كزوجة، والحرمان الأهم من الأمان في بيتها.

تود الهرب كل يوم، ولكن إلى أين ستذهب؟! لا تستطيع كره زوجها على الرغم من كل شيء، فبعد كل مرة يدمر ويحطم، يركع تحت قدميها في النهاية يبكي، يبكي بحرقة حتى يذهب في النوم.

نهنهات البكاء التي ترددها جدران البيت وتصل إليَّ، ليست نهنهات بكاء ميادة! بل بكاء زوجها!

* * *

ظلت تفرك يديها وهي تحكي بصوت مرتعش:

- أنا ما عملتش حاجة والله يا ست أم علياء! أنا مستعدة أستحمل أي حاجة! لكن يدخل راجل البيت ويشربوا الزفت ده سوا وبعدين يسيب الراجل يعمل معايا كده! أنا ما أقدرش أستحمل كده أبدًا!

- يعمل إيه!

- الواد بتاع الغاز ده! إمبارح لقيته داخل عليا المطبخ وجوزي مش دريان بنفسه وحاول...

سكتت ثم نظرت إلى الأرض وبدأت البكاء لأول مرة!

- أنا مش وحشة والله، ولا ست مش محترمة!

علا صوت بكائها وأصبح شبه هستيري! حاولت تهدئتها لكنني لم أفلح! تحول بكاؤها مع الوقت إلى لطم على الوجه.

- أنا سبته يعمل اللي هو عاوزه! ما قولتش لأ! ما قولتش لأ!

مسكينة ميادة! تركتها تفرغ شحنة بكائها، قلة حيلتها ويأسها، تركتها تلعن حظها وحياتها وحرمانها.

علت الأصوات في الخارج! سمعنا أصوات رجال البيت؛ زوج أم منة ووالد رباب، لم نميز ما يُقال، فقط علو الأصوات ثم انخفاضها ثم علوها مرة أخرى.

بعد قليل سمعنا صوت نزول هذا الجمع على السلالم المؤدية لشقتي، يتقدمهم عمال الغاز يحاوطون الفتى المترنح، خلفهم والد رباب وزوج أم منة، وفي المؤخرة أهل زوج ميادة.

ما إن أصبحوا أمام بابي حتى لمحت الفتى المترنح يرمي عينيه داخل شقتي، فتلاقت أعيننا لثوانٍ، ثم تبعه والد رباب الذي ما إن لمح ميادة تجلس بجواري حتى صاح:

- أهو! صدقتوا كلامي؟

قالها وجاء يقف على بابي وهو يرسل إليَّ نظرات غاضبة وينادي:

- تعالي يا ست ميادة! تعالي اطلعي بيتك، تعالي يا بنتي ما تخافيش.

خرجت ميادة وهي تمسح دموعها، استقبلها أهل زوجها بنظرات تهديد، وتمتم والد زوجها:

- اطلعي لجوزك يا بنتي، إحنا خلاص ماشيين.

صعدت ميادة إلى شقتها جريًا! صافح والد زوج ميادة زوج أم منة ووالد رباب في النهاية.

- متشكرين يا حاج! وربنا يكون في عونك، وينجي البيت ده من الشر اللي فيه!

قال والد زوج ميادة جملته الأخيرة وهو يرمي عينيه نحو شقتي ونحوي أنا تحديدًا!

خرج أهل زوج ميادة من البيت أثناء عودة العمال دون الشاب المترنح، تجمعوا أمام باب شقتي، تبادلوا النظرات فيما بينهم، ثم أمر والد رباب:

- اقفلي بابك يا أم علياء لحد ما الباشمهندسين يخلصوا شغلهم النهارده.

أنهى جملته وبدأوا التحرك، كلٌّ إلى عمله وشقته، ماذا كان يقصد والد رباب؟! لم أستطع تفسير ولا استيعاب توالي الأحداث ولا فهم دلالتها!

قرب نهاية النهار، طرق ابنه بابي وفور فتحي للباب أوضح أن والده أرسله

للوقوف على رأس عامل الغاز وهو يضع اللمسات الأخيرة داخل شقتي! أفسحت له الطريق؛ دخل عامل الغاز دون أن يرفع رأسه، وبدأ عمله في توتر وسرعة وارتباك!

في حين أن أخا رباب الأصغر ترك عينيه تتجولان فيَّ! يبتسم ابتسامة لزجة ويرسل بجسده رائحة ذكورية منفرة.

- هي علياء فين؟

- مش موجودة! بتسأل ليه؟!

- أبدًا! أصل الواحد ما كانش عارف إنه غبي كده!

- مش فاهمة!

- يعني! بيجري ورا البنت وهو قدامه أمها!

- إنت بتقول إيه؟!

- ولا حاجة! أنا بس بأعيد نظر!

أنهى عامل الغاز عمله بسرعة وتنحنح خارجًا، تبعه أخو رباب الأصغر ثم توقف وعاد ليلقي عبارته بإيحاءات سافلة مرة أخرى:

- لو عوزتي أي حاجة أنا موجود! أي حاجة!

قبل أن أستوعب حقيقة ما يقصده فعلًا، عبرت علياء باب البيت ورأت أخا رباب الأصغر يقف أمامي، ذهلت وتسمرت في مكانها في البداية، ثم تحركت لدخول الشقة بسرعة وغضب، ضحك أخو رباب الأصغر.

- خلاص هاحلك يا أبلة!

قالها بصوت عالٍ مخاطبًا علياء! ثم ولى لي ظهره وخرج من البيت.

شعرت بأن الأمور تتلاحق وتتسابق في عقلي، عقلي الذي لم يستطع أن يدرك ما يحدث! ولا يهضم ما سمع ورأى طوال اليوم! أغلقت باب الشقة وعدت إلى غرفة علياء. وقفت على عتبتها وسألت:

- هو الواد ده بيضايقك؟

لم ترد، أكملت خلع حجابها وخلع حذائها دون أن تنظر إليَّ حتى! كررت السؤال:

- الواد ده بيضايقك يا علياء؟!

رفعت رأسها ورمتني بنظرة اتهام، تحركت تجاه باب غرفتها، وألقت نظرة احتقار أخيرة ثم أغلقت الباب في وجهي.

قبل أن أستسلم لغضبي وأقتحم غرفتها عليها، سمعت صوت طرقات خافتة على باب الشقة، بلعت غضبي وذهبت أفتح الباب لأجد ميادة أمامي.

- خلي بالك عشان هيشَيلوكي الليلة!

قالتها همسًا وهي تتلفت حولها!

- شيلة إيه وليلة إيه؟!

- أبو رباب عشان يخلص الواد بتاع الغاز من إيد أهل جوزي، قالهم إنه بييجي البيت بالليل عشانك.

أسوأ ما يفعله بك البشر؛ هو جرك إلى منطقة شرورك.

عشت طفولتي لا أستوعب ما يحدث معي، عشت بتساؤل وحيد: لماذا يكرهني أبي؟! وفي مراهقتي، تساءلت طويلًا: لماذا ينفر ويتهرب مني إخوتي؟! لماذا تلاحقني نظراتهم المتَّهِمة دائمًا؟ هذا إذا نظروا إليَّ! أما مع زوجي، فعشت حياتي أدافع عن أخلاقي وشرفي، وعشت من بعده أدافع عن سمعتي. ثم سألت نفسي: ماذا لو كنت مثلما يقولون؟! ماذا لو كنت هذه المرأة التي يرونها؟! لماذا أنكر أمرًا قد يكون صحيحًا؟! ما المانع أن أصبح امرأة عاهرة؟! أليس هذا أفضل من الظلم، والاتهامات، واللوم الواقعين على عاتقي طوال حياتي؟! أليس هذا أفضل من رحلة دفاع لا تنتهي؟! إذا أصبحت كما يقولون، فلن أصبح في خانة الدفاع المتواصل عن نفسي بعد الآن.

* * *

- بس ده ظلم يا تيتة!

- هو إيه ده؟

- اتهامك بتهمة زي دي! معقول البيت كله صدق إن الولد بتاع الغاز بيجيلك إنتي!

- صدقوا يا بنتي، صدقوا. أبو رباب عشان يخلص جوز ميادة من إيدين أهله، ويخلص رقبة الولد بتاع الغاز من زمايله؛ قالهم إني غويته وضحكت عليه عشان أنا ست شمال بتعرف رجالة وبتنام معاهم.

- بس ده مش حقيقي يا تيتة! صح؟ إنتي ما كنتيش الست دي!

- إنتي عارفة إن لو قضيتي عمرك يتقالك إنك كدابة؛ هتبقي كدابة في الآخر!

- يعني إيه؟!

- يعني البني آدم لما يتعب من الدفاع عن نفسه ومحدش بيصدقه، بيبقى الشخص اللي الناس شايفينه في الآخر وبيعمل اللي هم كانوا بيتهموه بيه ظلم.

- مش فاهمة يا تيتة!

أغمضت عينَي في إرهاق امرأة عجوز ملت من شرح نفسها، أغمضت عينَي وتركت ذاكرتي تقترب من أكثر جزء في حياتي تمنيت نسيانه.

أصعب ما تمر به هو أن تتحول حياتك إلى إكليشيه اعتدت أن تسخر منه مراهقًا وشابًّا!

تعلقت في صغري بالشخصيات النسائية الشابة في الأفلام، والتي يقع حظها في رجل عجوز أو رجل عاجز عن إسعادها جنسيًّا. اعتادت السينما المصرية قديمًا إظهار شخصيات هؤلاء النسوة شبقات، خائنات، تفور أنوثتهن بشكل منفر، نساء تقتلهن الرغبة حد الخيانة أو قتل الزوج أو الوقوع في شراك رجل دون المستوى، يتلاعب بهن ويتركهن بعد ذلك من أجل فتاة بريئة لم تعرف للرغبة طريقًا. قضيت مراهقتي أشاهد هذه الأفلام وأقف عند هذه الشخصيات السينمائية موقف المشاهد الذي يحتقر غرائزهن المنفرة.

ما لم أعرفه حينها أن حياتي ستقف عند هذه النقطة كثيرًا! وسأتحول إلى امرأة إكليشيه محرومة تحكمها شهوتها!

لم أخن زوجي يومًا، بعد موته انقطعت علاقتي بجسدي عدة سنوات. للأمانة؛ انقطعت تلك الصلة في سنوات زواجنا الأخيرة عندما أصبحت لقاءاتنا في الفراش تحرضها الشجارات والأفكار التي كانت تغلي في رأس زوجي. انقطعت علاقتي بجسدي عندما توقف عن القدرة على الاستمتاع بوجوده بين يدَي زوجي. بعد موته، مات أيضًا هذا الجانب مني، ماتت رغبتي وشهوتي على الرغم من أنني كنت ما زلت أتمتع بكامل أنوثتي.

ثم حدث الأمر فجأة! فبعد سنوات قليلة من موته، في يوم ابتعت فيه نوع شامبو جديدًا لتجربته، شامبو في علبة ذات لون برتقالي، شامبو برائحة الزهور البرية. عند عودتي إلى البيت ووقوفي تحت ماء الدش الساخن وفرك رأسي به تصاعدت رائحته الفواحة بشدة، فأغلقت عينَي وفكرت في الشاب الذي باعه لي! كان يرتدي تيشيرتًا برتقاليًّا أيضًا، وجدت نفسي أفكر في ابتسامته، يده وهي تضع مشترياتي في الحقائب، لمس أصابعه لأصابعي عندما أخذ ثمن الشامبو، ذقنه وقوامه، فكرت في رائحته! من المؤكد أنها تشبه رائحة الزهور البرية!

عند خروجي من الحمَّام، أغلقت باب غرفتي بإحكام وبدأت النظر إلى جسدي عاريًا لأول مرة منذ سنوات طويلة! نظرت وتأملت وسألت نفسي سؤالًا واحدًا: هل سيغري هذا الجسد رجلًا مرة أخرى؟! هل هذا الجسد ما

زال صالحًا ليكون أمام عينَي رجل وبين يديه؟!

الإجابة كانت: نعم.

ما زال جسدي يحمل علامات الأنوثة والإغراء، ما زال هذا الجسد يريد هذه المتعة. يريد أن يخوض هذه المرة تجربة الوجود مع رجل، رجل وليس مجرد زوج! رجل وأنا وبيننا الرغبة فقط، هذا الجسد يريد أن يخوض تجربة الوجود مع رجل، بإرادته! يتوق للمسة يريدها، لا لمسة تعامله كحقل تجارب ولا تعامله كأنه ملكية خاصة، هذا الجسد أراد ولو لمرة واحدة أن يكون حرًّا في التعبير عن نفسه.

من هنا بدأت رحلة بحثي عنه، شيء أخبرني أن هناك شيئًا فاتني يجب تعويضه، هناك نوع نشوة لم أختبره. بحثت طويلًا في دوائري؛ خلفيتي كانت اتهامات زوجي المُتوفى بأنني امرأة هائجة لا تكتفي، امرأة لا تشبع! حتمًا امرأة مثلي ستجد من يقع في شباكها! هدفي: رجل أعزب، بعيد قدر الإمكان عن ابنتي ومعارفي، رجل غريب عني تمامًا، رجل غرضه المتعة فقط، فأنا لن أتزوج مرة أخرى! لن أصبح زوجة مرة أخرى في حياتي أبدًا.

كان الأمر بالنسبة إليَّ كمغامرة، أو اكتشاف نفسي، أو مجرد عقاب! عقاب لزوجي لاتهامه لي، أو عقاب لنفسي! لأثبت لها أنني بالفعل كما كان يراني «ست هايجة».

بحثت طويلًا حتى وجدته؛ صاحب أحد المحلات خارج مربعي السكني، ابتعت منه مرة عابرة كمضطرة، كان مختلفًا عن أي صاحب محل صادفته من قبل! كان مبتدئًا متلعثمًا يملك ابتسامة ساحرة ورائحة جسد تخلب العقل! يوم أن تسللت رائحته إلى أنفي، صعدت لعقلي مباشرة وحركت غرائزي دفعة واحدة! فظهرت رغبتي المتأججة على عينَي وطريقة نظرتي إليه! زاد تلعثمه فاضطر أن يخبرني أنه «جديد في الشغلانة»، وأن هذا المحل إرث من والده الذي تركه له هو وإخوته، هذا المحل الذي قضى والده فيه حياته وحقق من ورائه حياة راقية لأسرته وأولاده حتى تعلموا وصنعوا حياة عملية بعيدة عن هذه «الشغلانة». بعد موت الوالد رفض إخوته الاعتناء بالمحل، عرضوا بيعه، ولكنه «صعب عليه شقا والده» فأصبح المحل مسؤوليته حتى لا يضيع مجهود والده في العمل طوال سنوات عمره.

ضحكت وأخبرته أنه ابن أصول، ثم تكررت زياراتي له والتحجج للشراء من

محله، مع الوقت ذهب تلعثمه وأصبح يبادلني نظراتي بنظرات مثلها، حتى جاء اليوم الذي مرر لي هاتف المحل في ورقة الحساب.

هاتفته في اليوم التالي مباشرة بعد أن خرجت ابنتي من المنزل، وبمجرد تسلل صوته إلى أذني عبر الهاتف؛ تأكدت أنني أريد أن أتعرى أمامه.

استمرت مكالماتنا فترة قصيرة قبل أن يعرض عليَّ أن نتقابل في مكان يجمعنا، لم يحدد مكانًا عامًّا أم مغلقًا، فحددت أنا أن لا بيت لي سوى بيتي مع ابنتي وهو غير مناسب، فعليه أن يجد هو مكانًا آخر.

صمت يومها لحظات، وحمل خط الهاتف شعوره بالمفاجأة، ثم أملى عليَّ بعدها عنوان بيت والده المُتوفى.

أول مرة ذهبت كان وقت الظهيرة، استطاع حينها تعيين شاب ليبقى مكانه في المحل، وأنا أضمن غياب علياء عن البيت فلا تلحظ خروجي. شقة والده تقع في أحد الأحياء القديمة الفاخرة، مقارنة بمكان سكني!

حي قريب من البحر، من أجل دخول الشارع الموجودة فيه شقة والده المُتوفى، يجب أن تمر بممر ضيق بين شارعين، ممر ضيق يحمل دائمًا تيار هواء قويًّا مغمورًا برائحة الموج والصيد وزفارة السمك. أول مرة سرت معه في هذا الممر شعرت بأنني أطير، جسدًا وروحًا! اقترب مني أثناء سيرنا، تلامست ذراعانا، في نهاية الممر سبقني بخطوتين، تقدمني ليدخل الشارع. شارع هادئ، عند ثالث مدخل من بدايته، دخل أمامي بين ضلفتَي باب خشبي عريض طويل ممتلئ بالنقوش. صعد أمامي على السلالم الرخامية، في الدور الثاني وأمام أول شقة، أخرج مفاتيحه، وضع مفتاحًا صدئًا في الباب، أداره مرتين ثم دلف إلى الشقة. فتح الباب ووقف أمامه مفسحًا مكانًا لدخولي وهو يفرد ذراعه بجواره ليدعوني به للدخول. دخلت شقة والده المُتوفى المكونة من أربع غرف بأسقف عالية، غرفتان مغلقتان تمامًا، وغرفة تخصه، وغرفة معيشة يتخللها ضوء النهار الذي يقتحم شيش النافذة المغلق بإحكام.

أما غرفته، فهي غرفة جانبية تقع بين المطبخ والصالة، بها شرفة ضيقة تسمح بمرور شخص واحد، في منتصفها سرير واسع وعن يمين الشرفة دولاب بأرجل مرتفعة عن الأرض. رائحة البيت تقول إنه لم يُفتح منذ مدة، ولكن تنبعث منه أيضًا رائحة تنظيف حديث! أوضح هو هذه المفارقة، بأنه

أرسل عاملة نظافة تمهد قدومنا إلى البيت.

غرفة المعيشة تسبق غرفته، دعاني للجلوس فيها أولًا، غرفة دافئة، جلست على الأريكة الملاصقة للنافذة لأترك أشعة الشمس التي تتسلل من الشيش تتخلل جسدي الذي يشعر بالبرد. جلس هو بجواري مباشرة دون أن يترك فارقًا بيننا، فاقتحمتني رائحته بشدة أغلقت معها عينَي، فوضع شفتيه على شفتَي دون مقدمات.

ألا يقولون إن القبلة هي مفتاح علاقتكِ بالرجل؟! القبلة هي التي ستحدد كيف ستبدو علاقتكما في الفراش! حسنًا؛ لقد حددت هذه القبلة كيف ستكون روعة لقاءاتنا المتكررة بعد ذلك. فما إن وضع شفتيه فوق شفتَي، حتى بدأت تنفسه، وبدأ هو تذوقي، قبلة طويلة للغاية لم أختبر مثلها في حياتي! فزوجي لم يكن يمنح الوقت للقبلات، لم أحظَ بقبلة متأنية كتلك القبلة الأولى التي جمعتني بصاحب المحل في غرفة معيشة شقة والده المُتوفى.

ابتعد عني بعد وقت لم أستطع تحديده، فتحت عينَي ونظرت إلى عينيه، ابتسم لي دون أن ينطق ثم نهض وأمسك يدي لنتجه إلى غرفته الخاصة. دخلنا وأغلق الباب خلفنا بإحكام، نظر إليَّ مرة أخرى، هذه المرة دون ابتسامة، لمحت وجهه الجاد في ضوء الغرفة الخافت المتسلل من الشرفة الضيقة الجانبية، نظرة جادة لم تخفني، بل أخبرتني أنه يريدني، يريدني بقوة.

لم أتخيل قَطُّ أنني سأكون مع رجل غير زوجي! لم أتصور أنني سأستطيع فعل ذلك! أثناء زواجي وفي الفترة التي أصبحت فيها لقاءاتنا فرضًا وجبرًا؛ كرهت الوجود مع الرجال، بداية من زوجي وأي رجل آخر حتى في خيالي. اعتدت تذكر سنوات زواجي الأولى، أولى اللمسات والقبلات، التنهدات والكلمات التي كانت تُلقى في أذني، وكلما تذكرت زاد يقيني أنني لن أستطيع أن أكون مع رجل آخر، كيف سأنسى وجودي مع زوجي؟!

للأمانة؛ لقد عشت حياة جنسية جيدة مع زوجي، سنوات استمتعت فيها به ومعه، ولولا أنه غلبه سوء ظنه وتفكيره المريض، وربطه المختل بين رغبة المرأة في زوجها ورغبتها في باقي الرجال، ورؤيته للجنس نجاسة تجمع الرجل والمرأة ويجب التطهر من ذنبها حتى لو بين زوجين، لكنا عشنا أفضل

سنوات حياتنا معًا، سنوات طويلة لم تكن لتنتهي قَطّ.

ثم مات، وماتت رغبتي في وجوده قبل موته. ليحدث بعد عدة سنوات أن أكون مع رجل غيره! حين أُغلق الباب عليَّ مع صاحب المحل، قلت لنفسي لن أستطيع فعلها! لكنني فعلتها!

وجدت نفسي لا أتذكر لمسات زوجي السابقة! لم أكن أعرف قبل هذا اليوم أن هناك رجلًا قادرًا على محو آثار رجل آخر، محو لمساته ونبرة صوته ورائحته، لم أكن أعرف أنني سأكون مع رجل آخر وأشعر كأنها المرة الأولى لي!

أحب أوقات الظهيرة. أوقات هادئة مطمئنة، أوقات تكون فيها الأمهات في المطبخ تصنع الطعام، تخفت أصوات الأطفال؛ فهم إما في مدارسهم أو ما زالوا رضعًا فيأخذون قيلولتهم. تختفي تمامًا أصوات الرجال من البيوت، يغمر ضوء النهار مناور البيوت وسلالمها. أوقات صمت النساء لبقائهن بمفردهن في بيوتهن، أو خلو البيوت من أهلها تمامًا.

أحب أوقات الظهيرة، فهي كانت أوقات مقابلاتنا المتكررة. اعتدنا الذهاب ظهرًا، ندخل غرفته، نتعرى بالكامل ثم يلتحم جسدانا، وبعد أن ننتهي يغفو هو قليلًا، يغفو لدقائق معدودة، أتأمل أنا فيها جسده العاري، زغب شعر جسده الذي يميل إلى الصفرة، خيط التراب الذي يظهر فوق جسده الموازي لخيط شعاع الشمس المتسلل من الشرفة المغلقة. أغلق عينَي وأستمع إلى هدوء البيت وصوت موج البحر القادم من بعيد وصوت أنفاسه، تتسلل إلى أنفي رائحة طبخ الجيران مختلطة برائحة رذاذ البحر. دقائق كانت تمثل لي أفضل أوقات حياتي. دقائق تمر ثم يفتح عينيه ويبتسم لي.

نتشارك الحديث والطعام والسجائر والبيرة. في بداية لقاءاتنا أخبرته ساخرة أن لقاءاتنا هذه لا ينقصها سوى السجائر والخمر.

- عشان أبقى عملت كل حاجة غلط وحرام مع بعض.

أحضر لي في المرة التي تليها سجائر وبيرة، واعترف بأن ميزانيته لا تتحمل شراء الخمر الجيد، علمني تدخين السجائر وبلع البيرة بسرعة.

في فراشه، كنا نتقاسم كل شيء؛ المتعة والسجائر والبيرة والطعام.

فكرت أن أصنع له طعامًا بيدَي ولكنني تراجعت في آخر لحظة، لا، لن أصبح هذه المرأة مرة أخرى. فأصبح يحضر هو طعامًا كل مرة.

نتشارك الحديث، حديثًا ممتعًا كتلاقي جسدينا معًا، نتكلم ونضحك، أحببت وجودي معه، أحببت كل لحظة معه، ولكنني منعت نفسي بكل الطرق أن أقع في حبه هو! أقنعت نفسي بأنني أُحبني أنا معه، ولا شيء زائد على ذلك.

كلما صغرت سنك، أصبحت صدمتك فيمن تحب كبيرة. وكلما كبرت أدركت أن من تحبهم وتراهم قدوة هم في الأصل بشر خطاؤون ضعفاء، ولهذا السبب تحديدًا تقبلوك بنزقك وغضبك وأخطائك!

كلما كبرت ستعرف أنك أحببت من أحببتهم واتخذتهم قدوة، لأنهم مروا بما مررت أنت به، ضعفوا مثلما ضعفت. الفرق فقط أنهم تجاوزوه! تقف أنت فيه عاجزًا، تتلمس المساعدة، تنظر إليهم كقدوة، لتعرف بعدها أنهم كانوا في مكانك يومًا ما، ثم عبروا مثلما ستعبر أنت أيضًا.

بعد أن أنهيت اعترافي عن علاقتي بصاحب المحل أمام حفيدتي، رأيت صدمتها! أو هكذا كنت أعتقد.

- يعني ماما كان عندها حق!

- ماما!

أفقت من توقعاتي على تمتمتها!

- ماما قالتلي إنك ست...

لم تكمل مارية الجملة!

- ست إيه؟

أردت أن تكمل جملتها.

- بس إنتي مش كده يا تيتة! ماما كانت بتقول كده وخلاص!

ظلت تنكر بينها وبين نفسها وكأنها لا تخاطبني.

- إنتي جاية ليه يا مارية؟

إنكارها لما قصصته، رفضها لما صرحت به، بكاؤها عند حضورها في صباح اليوم، رغبتها في سماعي، مساومتها معي على البوح بالأسرار، دفعوني لسؤالها! انتبهت هي لسؤالي وتجاوزت صدمتها فيما قصصت، ركزت مع سؤالي وأجابت بتردد:

- عشان أعزمك على فرحي يا تيتة!

- إنتي مش جاية عشان كده يا مارية! إنتي جاية عشان حاجة تانية، عشان تحكي حاجة تانية، تعرفي حاجة تانية أو تسألي عن حاجة تانية! صح؟

طأطأت رأسها وبدأت وصلة أخرى من البكاء، انتظرت حتى أفرغت شحنة

بكائها.

قالت وكأنها تلومني:

- أنا اتخانقت خناقة كبيرة أوي مع ماما! ماما كانت دايمًا بتقولي إني زيك، شبهك! في آخر خناقة قالتلي إنتي زي ستك...

ترددت ولم تكمل، أمسكت عليها لسانها، هززت رأسي أطمئنها بأن تقول ما سمعته من أمها ولكنها لم تطمئن.

- مش مهم يا تيتة! أنا جاية عشان أشوف الست اللي ماما عاشت عمرها تلومني إني شبهها وزيها!

- ولقيتي نفسك شبهي؟!

- هي الحكاية خلصت يا تيتة؟ حكاية البيت وحكايتك؟

- لأ لسه!

- يبقى أنا لسه مش عارفة! كملي يا تيتة.

لم ينتهِ اليوم الثالث هذا بزيارة ميادة الليلية الهامسة التي رمت فيها قنبلتها في أذني وصعدت إلى شقتها سريعًا! فلم يكد يمر وقت طويل بعد غلقي بابي خلفها وجلوسي على أريكة الصالة ألتقط أنفاسي من هذا اليوم الطويل ومحاولة استجماع أفكاري، حتى سمعت طرقًا فزعًا على الباب! فتحته فوجدت رباب تتلفت وراءها برعب! أشرت لها لتدخل سريعًا، لم تتردد، دخلت وأغلقت الباب خلفها وجلست على أريكتي تلتقط أنفاسها.

سألتها:

- أخوكي برضو؟!

- المرة دي حالف يقتلني!

- يقتل مين بس؟! استهدي بالله!

- ما أعرفش مشي ورايا إزاي ولا عرف إني نازلة أقابله منين! شافني وأنا قاعدة معاه، وأول ما لف إيده حواليا، لقيت أخويا هجم علينا وقعد يضرب فيه! فلت منهم وجيت جري على هنا!

- ما تجيبيه يتقدم يا بنتي ونخلص!

- أبويا مش هيوافق، وهو ولا معاه فلوس ولا عنده شقة، ولا حتى بيشتغل شغل ثابت!

- طب وإيه اللي جابرك يا بنتي! اللي زي ده مش هيقدر يقدملك حياة كويسة!

- هاهرب معاه من هنا، إحنا اتفقنا على كده خلاص، هاهرب ونتجوز.

- ده مش عايز يتجوز يا بنتي! ده عايز واحدة ينام معاها!

- مش مهم! المهم أخرج من هنا، أي حاجة هتكون أهون من اللي باشوفه من أبويا!

- لأ يا رباب! أي حاجة بنشوفها من الرجالة هينة طول ما إحنا ما بنامش معاهم! ما تحكميش على نفسك بعيشة زي دي!

رفعت رأسها وكأنها توقفت فجأة عن الاستماع إلى كلام محفوظ! رفعت رأسها ونظرت إليَّ بعينين امتلأتا بالدموع وخرجت الكلمات منها تحمل ألمًا لم أتوقع أن أرى مثله:

- طب يبقى أنا صح! على الأقل هانام ساعتها مع راجل غريب! وبمزاجي!

استغرقت ثواني لتبين ما تقصده، ثواني شهقت بعدها ولطمت على صدري:

- أخوكي!

ضحكت وهي تبكي، أو هكذا ظننت، وصححت:

- بابا.

لطمت على وجهي هذه المرة ومنعت صرخة وسبة لو أطلقتها لزلزلت البيت بسكانه! أما رباب فطأطأت رأسها ودموعها لا تتوقف.

- أنا بقيت أستنى أخويا ييجي من الجيش ويضرب فيا ليل ونهار، أهون عليا من اللي بيعمله أبويا فيا!

لم أجد كلامًا يمكن أن يقال، فآثرت الصمت وتركت رباب تبكي.

فجأة سمعنا طرقًا عنيفًا على باب شقتي، فتحت الباب فوجدت أمامي أخا رباب الأصغر، ما إن لمحها من فوق كتفي حتى دفعني ودخل ليسحبها من يدها، وقفت حائلًا بينهما، وحاولت أن أجعله يتركها فاستغل هو هذا النزاع للمسي في مناطق عدة! كان ينتهك جسدي تحت ستار غضب مفتعل! تشتت من لمسي وفَقَد قوته في جذب رباب، فاستطعت تخليصها من يده.

خرجت علياء من غرفتها على إثر هذا النزاع الذي صحبته لعنات يطلقها أخو رباب الأصغر وهو يخرج من شقتي ينادي والده وسكان البيت كله!

جاء والد رباب على صوت ابنه الصاخب، تبعه زوج أم منة، ترنح زوج ميادة نزولًا خلفهم، ثم ظهرت حريم بيوتهم.

أعلن أخو رباب الأصغر أنني أخبئ أخته عندي، تبعه والده باتهامي بأنني أدفعها للسلوك المشين الذي يحاول أخوها حمايتها منه، يعلو صوت والد رباب باتهامي بالعهر، يصدق عليه ابنه، يصمت زوج أم منة موافقًا، يبتسم زوج ميادة انتشاء. تقف حريم البيت خلف رجالهن صامتات تمامًا، ينظرن إليَّ بشك وعطف في حيرة نسائية أعرفها.

لم يتوقف والد رباب، بدأ تعديد سقطاتي؛ فأنا المرأة التي قتلت زوجها بعهرها، قتلت زوجها الرجل الطيب الخلوق الذي لم يترك بيت الله يومًا، الرجل الذي صبر على انفلات أخلاقي من أجل تربية ابنتي مع أمها، وفي النهاية لم يتحمل وقتلته، الرجل الذي كان يشكو إليه كل ليلة في جلسة القهوة، يشكو إليه وإلى غيره! ثم أخذ والد رباب يمرر الشكوى حتى يومنا هذا! حتى بعد موت صاحب الشكوى نفسه!

يؤمن على كلامه ابنه! ويقسم إنه رآني أدخل بيوت رجال عدة!

يبدو أن تتبع خطوات النساء هواية هذا الابن الضال!

يؤمن على كلام والده، يثبت أنه حاول حماية ابنتي مني، بتحذيرها أكثر من مرة وتوعيتها بسلوكي.

يتولى والده الدفة منه، يحكي أنني أغويت رجل الغاز، وخربت على أم منة

بيتها بدفعها لعصيان كلام زوجها، ودفع رباب للدخول في علاقات مشبوهة!

لم يتوقف والد رباب وأخوها عن اتهامي وتعديد مساوئي وشيطنتي بين سكان البيت، ولم يتوقف زوج أم منة وزوج ميادة عن التأمين خلفهما على كل كلمة تُقال في حقي، لم يتحرك رمش أي امرأة تقف بين الضوضاء الرجالية تلك! حتى ابنتي وأنا!

ابنتي كانت تؤكد ما تسمعه بداخلها ويظهر هذا على وجهها في هيئة نظرات خزي وكسوف!

أما أنا؛ فتوقف بي الزمن.

فلم أعد أرى والد رباب ولا أخاها ولا زوج أم منة ولا زوج ميادة! لم أعد أرى سوى زوجي أمامي! زوجي في أربع نسخ يقف أمامي! يعدد اتهاماته التي أمطرني بها طوال سنوات زواجنا! لقد توقف بي الزمن عند الثمانية عشر عامًا من الزواج.

لم يهدأ والد رباب؛ ظل في حالة التصعيد والتهديد تلك حتى فلت منه الأمر، وقرر أن يطردني من البيت! قرر أن لا مكان لي في هذا البيت النقي الطاهر، يؤكد أن شقق هذا البيت هي شقق آمنة مستقرة، لا مكان لي بينهم.

لم أعرف كيف أتصرف أو ماذا أفعل.

- إنتو عايزين ترموني في الشارع! إنتو اتجننتوا!

صرخت! أو هكذا اعتقدت! فلم يكن لجملتي أي تأثير!

نطق زوج أم منة بعدها:

- قدامك كام يوم يا أم علياء عقبال ما تشوفي مكان تاني غير هنا، البيت ده ما ينفعش تعيشي فيه.

ثم وجه كلامه لرباب:

- تعالي يا رباب، اطلعي مع بابا وأخوكي.

قالها ورفع رأسه بعدها وأكمل:

- يلَّا يا جماعة! الست هتمشي من البيت، وإحنا عشان رجالة جدعان هنصبر عليها كام يوم كده ترتب أمورها.

أنهى زوج أم منة كلمته وبدأ يشير لهم للتحرك نحو شققهم، بدأوا يتحركون مع حركة يديه، دخلت أنا شقتي، سمعت صوت باب غرفة علياء يُغلق بقوة وغضب، جلست على أريكة الصالة أمام باب شقتي المفتوح على مدخل

بيت فارغ! جلست أنظر إلى الفراغ!
هكذا قضيت ليلة هذا اليوم الطويل! حتى جاء صباح اليوم التالي.

شعرت بالإهانة. لم أتخيل أنني سأُهان بهذه الطريقة يومًا ما! على الرغم من أنني اعتدت الإهانة من أبي وإخوتي وزوجي، لكن الإهانة من رجال لم تملك قَطُّ السلطة على جسدي، أمر لم أتحمله!

لم يأتِ أحد في رأسي حينها، سوى صاحب المحل. ما إن جاء الصباح وجاء ميعاد معرفتي بوجوده في محله، حتى هاتفته وبصوت يحمل انكسار الدنيا طلبت منه أن يقابلني للضرورة في شقة والده المُتوفى! يقابلني الآن.

لم يتردد؛ قال لي أن أسبقه إليها، خرجت من بيتي لا أرى أمامي، اتجهت إلى الشارع الذي يضم شقة والد صاحب المحل، انتظرته على «إمة» الممر الضيق، عندما وصل لمحني من بعيد، انعقد حاجباه فور رؤيتي، سار أمامي كما اعتاد متجهًا نحو العقار القديم الفاخر الذي يضم شقة لقاءاتنا منذ ما يقارب العام. صعد أمامي، صعدت خلفه، فتح الباب ودلف، ثم انتظر دخولي ليغلق الباب خلفي.

سبقت بخطوتين في اتجاه غرفة النوم، أوقفني بيده، وسحبني برفق إلى غرفة المعيشة هامسًا: «تعالي». أجلسني على الأريكة أسفل النافذة التي يتسلل منها ضوء الشمس، أجلسني برفق ووضع يده على كتفي وبدأ التربيت عليَّ بحنان! سألني:

- إيه اللي حصل؟

دون أن أنطق حرفًا، أرحت رأسي على كتفه وبكيت، بكيت بحرقة. ضمني إليه واعتذر! لا أعلم لماذا كان يعتذر! لكنه أدرك أنني بحاجة إلى اعتذار؛ اعتذار قرر هو تقديمه. يهمس في أذني باعتذاره، يقبل رأسي ويعتذر، يقبل رأسي ويدي، يمسح دموعي ويطبع قبلة رقيقة على خدي، يرفع رأسي ويبتسم ويعتذر:

- حقك عليا!

كان اعتذاره صادقًا! نهضت وأمسكت يده، اتجهنا إلى غرفة النوم، أغلقت بابها خلفنا وتجردت من ملابسي تمامًا، ثم دعوته لتقديم اعتذاره مرة أخرى، أقف أمامه وأعترف بأن كل جزء مني يحتاج إلى اعتذار، كل جزء من روحي، جسدي ومسام جلدي تحتاج إلى اعتذار. تجردت من ملابسي وتركته يقدم

اعتذار العالم لي.

* * *

- مش هتحكيلي اللي حصل؟!

سألني وهو يشعل سيجارة ويسحب منها نفسًا ثم يناولني إياها.

لم أعرف ماذا يجب أن أقول! يعجز عقلي عن ترجمة ما أشعر به إلى كلمات. ثم إن علاقتنا لم تحمل أي طابع شخصي، فأنا لا أعرف عنه شيئًا، وهو لا يعرف عني شيئًا، لقد خضنا أحاديث لم تنقطع؛ لم يكن أي منها له علاقة بحياتنا الشخصية!

دفنت رأسي في صدره العاري وواصلت الصمت! كان صوت والد رباب يتردد في رأسي، اتهاماته ووصمه لي، نظرات نساء البيت، زوج أم منة، زوج ميادة! تأمينهم على كل كلمة قيلت في حقي، أخو رباب الأصغر وعرضه السافل وتحرشه بي! زوجي، الرجل الذي عاش يتهمني في شرفي وعمل على أن أعيش من بعده متهمة في سمعتي! لقد قرر الرجل تدمير حياتي حيًّا وميتًا!

كان كل هذا يحاوطني ويعقد لساني؛ لكنني قررت أن أحكي الشيء الوحيد الذي ما زلت عاجزة عن استيعابه حتى بعد كل هذا! ما خطئي في رغبتي في زوجي؟! زوجي الذي قرر أن يشهر بسمعتي وأنا على ذمته! زوجي الذي اختار إفشاء سر بيته وامرأته إلى كل رجل في شارعنا رغبة منه في الانتقام مني حتى بعد موته! أراد زوجي تعريضي للإهانة طوال حياتي! لماذا؟ ماذا فعلت؟ أين خطئي؟!

نفثت دخان السيجارة ووضحت:

- فتحت رجلّي لجوزي! هو ده اللي حصل! قالولي ده جوزك! قلت يبقى حقه، حقه فيا، حقه يعمل فيا اللي هو عايزه، وحقي إني أتعرى قدامه من غير كسوف، ده جوزي! الراجل الوحيد اللي ليه حق فيا! لو هو هو نفس الراجل بس ما كانش جوزي، ما كنتش هاقبل إنه يمسك إيدي حتى! ما كنتش هابقى عايزة أبقى معاه! ما كانش فيه سبب يخليني أعمل أي حاجة عملتها معاه غير إنه اسمه جوزي، مكتوب في الورق وقدام الناس إنه جوزي!

رفعت رأسي عن صدر صاحب المحل ونظرت إلى عينيه وسألت:

- هي الست تبقى غلطانة لو وهبت نفسها لجوزها من غير ما تتمنع عنه؟ غلطانة لو سلمتله نفسها من غير ممانعة؟

نظر إلى عينَي قليلًا ثم تناول السيجارة من يدي وسحب نفسًا عميقًا، وقال وكأنه يحادث نفسه:

- مش غلطانة، دي تبقى ست الستات! ده يا ريت كلهم يعملوا كده! ده أنا مراتي ما بقتش بتعمل حاجة غير إنها بقت بتتمنع عني!

قال جملته دون أن ينتبه إليها! بعد ثوانٍ انتبه، فحُشرت أنفاس السيجارة في صدره، أخذ يسعل بقوة خانقة! رفع رأسه فوجدني أنظر إليه في فزع:

- إنت متجوز؟!

حاول أن يتراجع، يبرر، يشرح! لكن ملامح وجهي ووجهه لم تكن لتسمح بذلك.

- إنت متجوز؟!

أخذت أكررها دون وعي، أهتف بها دون سبب، نهضت من جواره أحاول أن أستر نفسي بكل ما أجده أمامي! أبحث عن ملابسي لأرتديها! فكانت هذه المرة الأولى التي أشعر فيها بأنني عارية أمامه!

نهض خلفي يستر جسده بدوره، يحاول إيقافي، أدفعه بغضب.

- يا وسخ! طلعت متجوز! يا وسخ!

- أنا مش وسخ! وإنتي عارفة!

حاول إيقافي مرة أخرى؛ هذه المرة بغضب سببه شعوره بالإهانة!

- يا وسخ! يا وسخ!

أكررها كشريط كاسيت يسف! أكررها لنفسي وليس له. أكملت ارتداء ملابسي وسط محاولاته لإيقافي، يشرح أن زوجته بعد ولادة ابنتهما عزفت عنه، إنه معذور، إنه ليس بخائن! هذه ليست خيانة! يذكرني برأيي فيه؛ بأنه رجل لطيف، رقيق، بأنه ليس كأي رجل عرفته أو سمعت عنه.

- يا وسخ!

ما زلت أرددها دون توقف، انتهيت من ارتداء ملابسي ولملمة أشيائي، اتجهت إلى باب الغرفة، انتفض بقوة ووقف أمامي يمنعني بغضب ثائر:

- لو أنا وسخ؛ فإنتي كمان...

لم يكمل جملته، أمسك لسانه، ثم تحولت نظرته إلى نظرة استجداء تمنعني من الخروج.

- أنا كمان وسخة زيك! أيوه بالظبط!

أكملت أنا جملته الناقصة.

- أنا آسف، ما أقصدش! أرجوكي اسمعيني!

- إوعى من قدامي!

- أنا ما كنتش عايز أعمل فيها كده! ما كنتش عايز أبقى مع ست غيرها! هي اللي...

قاطعته:

- مفيش حاجة اسمها هي اللي! على الأقل ما تبقاش جبان! خليك راجل وشيل مسؤولية اللي عملته! إنت خنتها وكدبت عليا.

أزحته من أمامي، لم يتحرك! ظل واقفًا بثبات حائلًا بيني وبين الخروج.

- أنا كنت محتاج أحس باللي حسيته معاكي! أنا راجل وكنت محتاج أعيش كل ده! هي مش مدياني فرصة! لكن إنتي حاجة تانية!

اقتربت من وجهه وركزت عينَي في عينيه.

- إنت عارف أنا حاجة تانية ليه؟ عشان أنا مش عايزة حاجة منك غير إني أنام معاك! أنا وسخة بجد. لكن هي عايزة منك تبقى جوزها وأبو بنتها وراجل بيتها! وإنت مش عايز غير إنك تنام معاها! أنا حاجة تانية عشان مش باغسل هدومك ولا باعملك أكلك ولا فاتحالك بيتك وباربيلك بنتك! أنا حاجة تانية، بس هي مراتك! وعارف إيه اللي خلاني حاجة تانية؟ إني كنت مرات راجل برضو في يوم من الأيام؛ راجل ما كانش عايز حاجة مني غير إنه ينام معايا! ما كانش عايز يبقى جوزي وأبو بنتي وراجل البيت! ولو فضلت زي ما أنت، مراتك هتبقى حاجة تانية زيي، بس مع راجل غيرك.

شحب وجهه وغابت منه دماؤه تمامًا! أزحته هذه المرة فوجدت أنه أصبح في وزن ورقة شجرة في منتصف فصل الخريف! انزاح من أمامي، فتحت باب الغرفة وخرجت.

في طريقي إلى باب الشقة، عاهدت نفسي على ثلاثة؛ أن لا بكاء حتى الرجوع إلى البيت، لا رجل آخر سيضع يده على هذا الجسد ثانية في حياتي، وأن ما حدث هنا طوال العام الماضي سيموت معي.

لا أحد سيعلم بشأن علاقتي تلك، سأمحوها تمامًا من رأسي. لكن القدر كان له رأي آخر!

ففور خروجي من العقار الذي يضم شقة والد صاحب المحل؛ أسرعت بخطواتي داخل الشارع الهادئ، وفور دخولي الممر الضيق، وجدت علياء ابنتي أمامي تنتظرني! تقف حاضنة حقيبتها، يهزها تيار الهواء ويعبث بحجابها الطويل، تلاقت عيناي بعينيها، منحتني نظرة لم أنسها حتى يومنا هذا.

علمني زوجي أن الرجال يرون الجنس عملية سيطرة من الأساس. لا يرون فيه فعل حب أو رغبة، أو حتى تلبية احتياج إنساني جسدي طبيعي! يرونه فعل سيطرة على جسد آخر وحياة أخرى، يرون فيه فرصة لفرض أنفسهم وإثبات وجودهم.

في الزواج؛ يستخدم الأزواج الجنس لإكمال سيطرتهم على حياة زوجاتهم، حين يفشل في إقناعها بحبه، أفكاره، تنفيذ رغباته، تغيير نفسها من أجله، دفعها لفعل ما يريد، يفشل في كل ما يحاول فرضه عليها! يلجأ إلى الأمر الوحيد الذي يشعره بالسيطرة؛ وضعها تحته.

علمني أن الرجال يرون الجنس فعلًا قذرًا مهينًا، وفي كل مرة يفعله مع امرأته، يشعر بأنه نجح في إهانتها وكسر شوكتها! نجح وانتصر وأثبت وجوده!

في صغرنا كانوا يحذروننا من تسليم أجسادنا للرجال، يؤكدون: الرجل لا يحترم الفتاة التي يستطيع لمسها، تقبيلها. الرجل لا يحترم الفتاة التي تسلم نفسها له. في صغرنا كنا نظن أن هذا ينطبق على ما يحدث خارج إطار الزواج فقط! وما إن يصبح الرجل زوجكِ فإن تسليم نفسكِ له لن يفقدكِ احترامه لكِ! كنا سذجًا! فالرجل يفقد احترامه للمرأة فور وطئها! حتى وإن كان يجمعهما عقد قران معلن وموثق من كل الأديان السماوية. ما إن يجتمع الرجل بالمرأة حتى يفقد احترامه لها، يشعر بأنه امتلكها؛ الامتلاك الذي يبيح له إهانتها والسيطرة عليها.

زوجي كان يحتقرني، ليس مجرد إهانة! بل احتقار كامل ممنهج ومتجدد. ففي كل مرة يُغلق باب علينا، يمارس إهانته في عقله. وفي كل مرة أرفض، يجن جنونه، يمارس كل الألاعيب، يبكي ويعتذر، يحضر هدايا، يستجيب لطلبات متأخرة، يفعل كل شيء حتى يلين قلبي، وفور أن يرى موافقتي ثم ينتهي مني، يعود إلى احتقاري في نفس اللحظة.

لذلك بعد موته، كنت أعرف أن لا رجل سيريد الاقتراب مني بدافع الحب أو رغبة حقيقية، سيقتربون فقط بغرض فرض السيطرة على جسد آخر.

هذه الفكرة لم تغِب عن رأسي طوال وجودي مع صاحب المحل! على الرغم من أنه كان يشككني فيها طوال الوقت بلطفه ورقته!

لذلك لحظة خروجي من شقة والد صاحب المحل كانت لحظة تعزيز لكل

ما تعلمته، خرجت وأنا أفكر أنه مثلهم جميعًا! أراد أن يثبت نفسه أمام زوجته وكونه مرغوبًا من امرأة أخرى! أنا كنت أداة في يد رجل لفرض قوته وسيطرته مرة ثانية!

المؤلم أن هناك امرأة أخرى يمارس عليها السيطرة الفعلية!

خروجي من علاقتي به لم يلازمني فيه شعور الصدمة بقدر شعور الندم واحتقار النفس بأنني كنت أداة في يد رجل لظلم امرأة غيري، ووسيلة لتهديد أمانها.

* * *

سألتني مارية:

- ماما عملت إيه يا تيتة؟!

- عملت إيه في إيه؟

- عملت إيه لما شافتك خارجة من بيت أبو صاحب المحل؟!

- مارية، إنتي جاية ليه؟

سألتها ثانية! رغبة في إنهاء أزمة وجودها، رغبة في الوصول إلى أصل الزيارة وهدف كل هذا الحكي، رغبة في معرفة سرها!

ترددت ولم تفصح، كررت أنا:

- إحنا اتفقنا إني لو قلت سر، هتقولي سر! وأنا حكيتلك حاجة عمري ما حكيتها ولا جت على لساني قبل النهارده! فلو سمحتي قوليلي الحقيقة!

- أنا خايفة أتجوز يا تيتة!

قالتها وكأنها تلقي حجارة من فوق صدرها!

- ما تتجوزيش!

- مش هينفع! ماما مصممة.

- مفيش جواز غصب دلوقتي يا بنتي!

- فيه يا تيتة! لما يبقى تصحيح غلطة!

- هو الجواز نفسه غلطة! هنصلح بيه إيه ده!

- أنا أعرف خطيبي من حوالي سنة، وكنا بنحب بعض وبنتكلم وبنتقابل عادي، لحد ما هو طلب مني علاقتنا تتطور! طلب مني حاجات كده ما قدرتش أوافق عليها! فقرر إنه يتقدم رسمي ونمشي في إجراءات الجواز عشان أطمن! اتقدم وماما وافقت، وفي مرة وهو عندنا ماما دخلت علينا لقيته بيبوسني، ومن ساعتها ومعاملة ماما متغيرة خالص! هي طول عمرها أصلًا بتعاملني مش أحسن حاجة، بس بعد الموقف ده وطريقتها بقت صعبة خالص! من كتر الضغط عليا قولتلها مش هاتجوز! إتجننت! قعدت تزعق وتشتمني وتجيب في سيرتك كل شوية، وتقولي إنتي شبه ستك؛ هايجة! ولازم أتجوز! هو أنا كده يا تيتة فعلًا؟!

- والله يا بنتي لو أمك شايفاكي شبهي، يبقى احتمال كبير آه!

شغلها الأمر عدة ثوانٍ قبل أن تكتشف أنني أمزح معها! تنهدت أنا للخروج

من حالة الرعب اللحظية التي وضعَتها فيها دعابتي.

- أنا مش شايفة فين المشكلة برضو! ما تتجوزيش! علياء مش هتقدر تجوزك غصب! آخرها الزعيق والشتيمة!

زاغت عيناها وترددت مرة أخرى! هززت رأسي وابتسمت.

- كملي يا مارية! قولي باقي الحقيقة!

- أنا وخطيبي حصلت بينا حاجة تانية، تخلي كل كلام ماما صح! ولازم نتجوز!

- إيه اللي حصل؟

- كل حاجة يا تيتة!

- وأمك عارفة؟

- لأ! بس أكيد حاسة! أصلًا كل كلامها بتقول إنها متأكدة إن ده حصل بينا! عشان كده مش بتبطل تقول الكلمة إياها!

- هايجة!

قلتها وأنا أتأمل كل حرف فيها، أراجع كم مرة قالها لي زوجي، وكم مرة اختزنتها علياء داخلها واحتفظت بها كل هذه السنوات لتلقيها على مسامع ابنتها! لقد أخرجت علياء غضبها مني في ابنتها!

حادثت مارية نفسها:

- ماما كان عندها حق! أنا كده فعلًا!

- سيبك من أمك دلوقتي وقوليلي، كنتي بتحسي بإيه وإنتي مع خطيبك ده؟!

صُدمت مارية من سؤالي وانعقد لسانها لدقائق، حاولت استيعابه لدقيقة أخرى، ثم أجابت بتوتر ودفاع غير مبرر عن النفس:

- لأ يا تيتة! ده حصل بينا مرة واحدة بس! أنا ما كررتهاش صدقيني!

- يا بنتي مش قصدي! ردي على سؤالي بس! وإنتي معاه بتحسي بإيه؟

- مش فاهمة يا تيتة!

- يعني يا بنتي وإنتي معاه، كنتي مبسوطة، مرتاحة، خايفة، قلقانة، قرفانة، عايزة تمشي، حاباه، كارهاه! كنتي حاسة بإيه؟

- إشمعنى يا تيتة!

- جاوبي عليا يا مارية بقى!

قلتها بعصبية.

ترددت قليلًا، ثم أجابت بصوت مختنق:

- كنت خايفة!

- خايفة من إيه بالظبط؟ خايفة منه، ولا خايفة عشان بتعملي حاجة جديدة عليكي؟ ولا خايفة حد يشوفكم مثلًا؟

- تفرق يا تيتة؟!

- تفرق كتير يا بنتي!

- مش عارفة! مش فاكرة!

- معلش، حاولي تفتكري!

صمتت، وتركتها أنا لرأسها ومشاعرها، فأنا أعرف صعوبة الاعتراف بالحقيقة في هذه اللحظة، الاعتراف للنفس قبل الغير! أعرف تشوش الوصول إلى هذه الحقيقة، صدمة الوصول إليها، رهبة الوصول إليها!

لقد استغرقت أكثر من خمسة عشر عامًا من الزواج للوصول إليها!

صمتت مارية طويلًا، ثم رفعت رأسها وقد امتلأت عيناها بالدموع، ووجهها يحاول استيعاب ما توصل له العقل، قالت بصوت هامس:

- كنت خايفة منه يا تيتة! كنت خايفة من زعله لو قلت لأ!

ثم انفجرت في بكاء اهتز معه جسدها كله.

قولة «لأ»!

آه لو تعرف النساء قبل التورط مع الرجال ما تفعله قولة «لأ»!

قولة «لأ»، لا تغضب الرجل فقط! بل تستفز رجولته أيضًا، عناده، قوته وضعفه!

قولة «لأ» كافية لإخراج أسوأ ما في الرجل، كافية لإظهار حقيقته. وكافية لإخضاع المرأة وإجبارها على فعل ما لا تقبله ولا ترضاه تجنبًا لحالة الخوف والرعب التي يحاوطها بها الرجل!

كل امرأة خاضت علاقة طويلة مع رجل تعرف جيدًا ما يفعله الرفض مع الرجل، تعرف عواقب قولة «لأ».

لا يسمع الرجال كلمة «لأ». الكلمة غير موجودة في قاموسهم من الأساس، لا يسمعونها؛ وبالتالي لا يقبلونها فلا ينفذونها، بل يبدأون في مقاومتها.

هناك رجال يمارسون الضغط بالقمص والزعل والبعد؛ لن يحادثكِ، سيتجاهل وجودكِ، سيهجركِ ويبتعد ويصمت.

هناك نوع يمارس المحايلة، والضغط بإثارة شفقتكِ وتعاطفكِ، وتحفيز إحساسكِ بالمسؤولية تجاهه.

هناك نوع يقرر معاقبتكِ.

يحرمكِ من وقته وحبه وحنيته وما يقدمه، يسلبكِ القليل الذي منحه لكِ من قبل. يهددكِ وينزع الأمان من تحت قدميكِ.

هناك من يفقد عقله ويجبركِ على فعل ما يريده.
يجبركِ بالضغط والشجار، اللوم والاتهام وربما الضرب، وأحيانًا يصل الأمر للقتل!
الرجال لا يسمعون كلمة «لأ»، وإذا سمعوها أنكروها، وإذا كررتِها، قاوموها. وإذا تمسكتِ بها، مارسوا العقاب عليكِ حتى تتراجعي وتتخلي عنها.

* * *

انتظرت حتى انتهت من البكاء، وبدأت التقاط أنفاسها، مسحت دموعها ونظرت إليَّ في ضعف وحيرة.

- أعمل إيه يا تيتة؟!

- اتصلي بأمك خليها تيجي هنا وأنا هاتصرف.

لم تصدق طلبي! فلم تستجب له! ولكنني كررته بحسم. رفعت هاتفها المحمول وأجرت مكالمة مع أمها التي سمعت صراخها يخرج من الهاتف الصغير، ثم سمعت صمتها المشتعل عندما أخبرتها مارية أنها تجلس معي وأنني أريد رؤيتها. أنهت مارية المكالمة بعدها.

- جاية يا تيتة! مسافة السكة.

أرجعت رأسي إلى الوراء وأغمضت عينَي في محاولة للسيطرة على الانفعال الذي تملكني للحظات.
انتبهت مارية لحالة التوتر التي أحاطت بي من فكرة حضور علياء ابنتي لبيتي ورؤيتها بعد كل هذه السنوات.

- أنا كنت شفت كام واحدة جوافة كده في التلاجة يا تيتة، إيه رأيك أقوم أعملهم عصير قبل ما يبوظوا؟

هذه كانت محاولتها لتهدئتي!
فتحت عينَي، طالعني وجهها البريء! هل من المعقول أن أحبها ونحن لم نبقَ معًا ليوم كامل حتى؟

- قومي يا مارية!

قلتها ببطء.

- لو قولتلك قعدتك بتفتح النفس مش هتصدقيني. صح؟

قالتها بابتسامة وسط وجه انتفخ من كثرة البكاء!

لم أرد، فقط أومأت برأسي أن «يلّا قومي». نهضت وحملت كوبَي الشاي الفارغين من أمامي واتجهت إلى المطبخ. تذكرت شيئًا فأوقفتها:

- مارية! مفيش لبن سايب تحطيه في العصير، هتلاقي اللبن البودرة في علبة عندك.

- حاضر يا تيتة.

أظن أن أعقد علاقة تجمع بين ساكني البيت الواحد؛ هي علاقة الأم بابنتها والعكس! فهناك امرأتان! امرأة تُخلق من رحم امرأة أخرى، امرأة تصنع حياة امرأة غيرها، امرأة تتحكم في طريقة حياة امرأة تحت سلطتها، وامرأة تنشأ أمام نموذج أولي ينبئها بكيف ستكون في المستقبل وكيف سيكون مصيرها!

بنظرة شاملة، فهي علاقة تكاد تحمل قدسية! علاقة يجب أن يحكمها الحب، وبنظرة تفصيلية لحيوات عشناها وعاصرناها، نجد أنها علاقة تحكمها الغيرة والندية، الشفقة والرفض، الاحتياج الذي لا ينتهي، والرغبة في الفراق إلى الأبد!

تنظر كل بنت إلى أمها بخوف من مصير مشابه، وتنظر كل أم إلى ابنتها بحسرة، فما زالت أمامها فرصة في حياة أفضل. وما بينهما يوجد رجل!

أميل إلى الاعتقاد أن ابنتي علياء كرهت والدها قبل أن تكرهني، كرهت اتهامه المتواصل لي، كرهت طريقته وكلامه ووجوده، ولكنها في نفس الوقت كانت تتطلع إلى نموذج أم تحترمه، نموذج أم يطمئنها!

- اشربي العصير بقى وادعيلي يا تيتة.

عادت مارية بكوبَي عصير جوافة، وُضعا في نفس كوبَي الشاي المستخدمين من قبل! إنها فتاة لا تهدر موارد ولا تضع نفسها تحت وطأة مطبخ ممتلئ بالمواعين! إنها تقوم بغسلهما أولًا بأول.

- هتبقي ست بيت شاطرة يا مارية.

قلتها وأنا أتناول كوب العصير وأبدأ في تذوقه.

سألتني بفرح من نالت شهادة التخرج:

- بجد يا تيتة؟!

طلبت منها بحنين:

- احكيلي عن علياء يا مارية!

- ماما! ماما غلبانة أوي، أو ساعات باحسها كده! وعيت على الدنيا وهي بتشتغل عشان تربيني، اتطلقت من بابا وأنا صغيرة عشان كان بيخونها كل شوية، وما رضيتش تخليني أعرفه ولا أشوفه حتى! وما اتجوزتش تاني! ماما بتكره الرجالة.

- ومين بيحبهم؟!

تعجبت وأنا أكاد أنهي نصف كوب العصير.

ردت مارية بجدية شديدة:

- أنا يا تيتة! أنا باحب أبقى مع راجل بيحبني ويخلي باله مني، عايزة أبقى مع راجل يا تيتة! هو ده غلط؟

أجبت أنا بنفس الجدية:

- لأ مش غلط يا بنتي.

إنها رغبة مشتركة بين كل من عرفتهن من النساء: «عايزة أبقى مع راجل!».

رجل يحميها، يحبها، يحتويها، رجل تشعر بأن له اليد العليا، ولكنها يد حانية، محبة وعطوفة. رجل تحبه وتحترمه، تبجله وتريده. كل امرأة منا أرادت أن تكون مع رجل! ولكن انظري إلى ما لاقت كل واحدة منا في النهاية.

- الراجل هو اللي مش عايز يبقى مع ست يا بنتي!

- يعني إيه؟!

- يعني عايز يبقى مع حتة لحمة! إحنا بنبقى عايزين نبقى مع راجل، بني آدم كامل، وهو بيبقى عايز حتة لحمة!

- ماما بتقول نفس الكلام! وبتقول ما ينفعش نبقى زيهم ماشيين ورا...

لم تجد كلمة مهذبة لوصف الأمر فصمتت.

لقد كرهت علياء والدها إذن كما توقعت! كرهت سيره وراء شهوته، إظهارها باستمرار، الشجار بسببها، عدم احترام وجودها كابنة بيننا! وكرهتني أنا أيضًا لأنني لم أقف أمامه، لم أرفضه! وجدتني شهوانية أخضع له في كل مرة يطلبني فيها، علياء أرادت مني أن أرفض وأقف وأمانع، أرادت أن تحترمني وتراني أمًّا حقيقية لها، ولكنها رأت فقط امرأة! مجرد امرأة تجري وراء شهوتها! لم تعِ علياء أنها لم تكن شهوة، بل ضعفًا! ضعف امرأة تحيا بعقلية أن زوجها صاحب حق فيها مهما حدث! مهما كرهت الأمر أو أبغضته! إنه حقه الذي لا تستطيع رفضه. ضعف امرأة تعلم أنها لو رفضت لتعرضت مباشرة للاتهام، اتهام في شرفها وأخلاقها. ضعف امرأة عاشت تحت تهديد الخوف طوال سنوات زواجها.

لم تعِ وتفهم علياء كل هذا! ولا ألومها، فهي أمور لا يستوعبها كثير من النسوة إلا بعد خوض التجربة بالفعل.

- عشان كده ما رضيتش تتجوز تاني!

أكدت متفهمة.

- آه، ماما تحسي إن عندها عقدة! شايفة إن ما ينفعش ست تحس بالطريقة دي، فضلت طول عمرها قافلة عليا، تخوفني من كل حاجة وأولهم جسمي! تكرهني فيه! لحد ما لقيت اللي يحبني ويحبه فمشيت وراه، غصب عني يا تيتة والله!

- أنا هاخلص العصير قبلك!

سحبت تركيزها بجملتي قبل أن تبكي مرة أخرى!

- لأ إزاي!

أمسكت كوبها وتناولت نصف محتواه في شربة واحدة، ثم رفعت الكوب أمامي لتبرهن تقدمها.

- تسلم إيديكي يا مارية.

- صحيح يا تيتة! إنتي ما قولتيش إيه اللي حصل لما ماما شافتك! وإيه اللي حصل في البيت! إنتي أكيد ما خرجتيش منه! إنتي لسه موجودة فيه أهو! عملتي إيه عشان تفضلي فيه؟

أرجعت كوب العصير مكانه وعدت إلى جلستي الأولى وابتسمت.

- خرَّجت كل رجالته منه.

لم أستطع فتح فمي أمام علياء. فور رؤيتها خارج بيت والد صاحب المحل المُتوفى، تلاقت أعيننا في نظرة أودعَتها كل الكراهية التي تحملها بداخلها تجاهي! ثم استدارت وتركتني وذهبت سريعًا. يومها خرجتْ ليلًا بأول حقيبة تضم أشياءها، ثم تتابعت حقائبها في الأيام التالية حتى حان يوم خروجها النهائي.

شعرت يومها بأنني خسرت كل شيء، حتى الخيط الواهي الذي كان يربطني بابنتي قد قُطع وانتهى. لم يعد لي شيء باقٍ في هذه الحياة، ابنتي وتركتني، سمعتي وسُحقت تمامًا، وجودي في بيتي أصبح مهددًا، حتى علاقتي العابرة التي جمعتني بصاحب المحل؛ اتضح أنني كنت فيها مجرد أداة في يد رجل ضد زوجته.

حياتي أنا انتهت، وحياة كل سكان البيت عادت كما كانت، وكأن كل ما حدث في الأيام الماضية لم يكن!

عاد زوج أم منة إلى الانتظام في الذهاب إلى عمله، أم منة تخرج لتوصيل ابنتيها إلى المدرسة ثم تذهب إلى التسوق لتعود إلى بيتها لتحضير الطعام، رباب ما زالت تخرج خلسة، والدها عاد إلى خط سيره بين المسجد والبيت والقهوة، وأخوها ينجح في إعادتها كل مرة إلى البيت مطاردة! طلبات ميادة تأتي لتُوضع أمام باب شقتها.

كل شيء عاد إلى روتينه، سيطر الرجال مرة أخرى على حيوات نسائهم، وكأن شيئًا لم يحدث! أنا فقط من انهارت حياتي!

أردت الانتقام من زوجي! ولكنه مات! كيف سأنتقم منه وهو تحت التراب بالفعل؟!

بعد أسبوع من خروج فنيي الغاز من البيت، تقرر فتح المحابس الرئيسية في الشارع، ودخول الغاز الطبيعي بشكل رسمي في شققنا. فور أن فتح العامل الأربعيني محبس الغاز في شقتي شعرت بخنقة! قلت: «هناك رائحة!»، ضحك وأكد أن هذا الغاز لا رائحة له: «الغاز الطبيعي ملوش ريحة، مش زي غاز الأنابيب! يعني اللي هيشمه هيموت وهو مش دريان!».

قالها وكأنه يتمنى لي الموت! وكيف لا، وأنا من تسببت في إغواء زميله وإفساد أجواء عمله!

قال جملته وخرج من شقتي الخالية إلا مني ومن كلام الرجال عني ورائحة الغاز التي أقسم إنها تملأ المكان.

* * *

بعد رحيل علياء عني، وتحت وطأة بقائي في شقتي ليلًا أول مرة بمفردي منذ أن دخلتها عروسًا جديدة، شعرت بالوحدة. وحدة من نوع جديد!

وحدة دفعتني للاقتناع بكل ما يقال عني! أنا بالفعل كما يظن الجميع بي! وإلا لماذا انفض الجميع من حولي؟! قطعًا لأنني عاهرة سيئة السمعة.

دخلت غرفتي، عبثت في محتوياتها، أخرجت حقيبة كنت قد أغلقتها على ما فيها منذ ما يقرب من عشر سنوات، فتحتها، أخرجت منها قميص نوم أسود بروب شفاف طويل.

أخرجته، عطرته وارتديته ثم انتظرت في الصالة على الأريكة التي تقع أمام باب الشقة. انتظرت انتهاء صلاة الفجر وعودة والد رباب، سمعت نحنحة صوته فور دخوله باب البيت، فتحت باب شقتي بقميص نومي ووقفت أنظر إليه ثم ناديت:

- يا حاج!

رفع رأسه وترك عينيه تتفحصانني بالكامل تحت ضوء مدخل البيت الأصفر الباهت، يتفحصني من قمة رأسي حتى أصابع قدمَي، يحاول أن يستشف ما يظهر تحت قميصي في الضوء الخافت.

- معلش يا حاج! كنت عايزاك في موضوع!

- خير؟!

قالها واقترب وسبحته ترتعش في يده. أودعت صوتي رقة مصطنعة وصرحت:

- أنا عارفة يا حاج إنك وحداني بقالك كتير، بعد الست أم رباب الله يرحمها! الله يكون في عونك والله! أنا بقالي كام سنة بس وباتعذب!

انتظرت دون أن أكمل حتى أرى تأثير كلامي عليه، ولكنه كان مشغولًا بفتحة صدري، فوضعت إصبعي أسفل ذقنه ورفعت رأسه لينظر إلى عينَي.

- بس برضو يا حاج! مهما كان ما ينفعش تعمل كده مع بنتك!

حل مكان نظرته الشبقة، نظرة رعب وخوف وظهر عرق في قمة رأسه.

- إنتي بتقولي إيه يا ولية؟!

- ما تخافش يا حاج! أنا قصدي يعني، ليه بنتك! ما أنا موجودة!

سمعت لهاثه! لفحتني أنفاسه الساخنة وهو يقترب بجسده، أوقفته بيدي.

- استنى بس! أنا ست سهلة بس مش للدرجة دي! إحنا لازم نتفق الأول!

- موافق!

خرجت منه مبحوحة.

- موافق ترجَّعلي حقي قدام أهل البيت؟

- موافق!

كررها ثانية.

- موافق تخليهم يصرفوا نظر عن إني أمشي منه؟ موافق تطيب خاطري قدامهم كلهم؟

- موافق!

أقر موافقته الأخيرة، وقد بدأ يظهر انتصاب خفيف تحت جلبابه الطاهر.

- خلاص اتفقنا! تلم أهل البيت كلهم قدام شقتي، بس المرة دي تقولهم إنك كنت غلطان في حقي، وإني مش هامشي! وبعدها أنا هابقى تحت أمرك.

- ودلوقتي!

ظلت يدي تدفع تقدمه نحوي برفق! ثم جالت برأسي فجأة فكرة أنني لو تركته يصعد إلى شقته وهو في حالته تلك، فلن يجد أمامه سوى رباب! لا! لن أعرضها لهذا الشعور ثانية!

تراجعت خطوة وأرخيت يدي عن صدره وأشرت بأنه يمكنه الدخول للجلوس معي قليلًا.

دخل مرتجفًا، أغلقت الباب خلفه وتحركت معه للجلوس متجاورَين فوق

أريكة الصالة.

لا يكبر الرجال على الجنس أبدًا! مهما تقدم بهم العمر وترهلت جلودهم وذبلت أعضاؤهم واهترأت أعصابهم، يظل الجنس دينهم ودنياهم.

يظل هوسًا يسيطر على عقولهم، لا يحترمون معه عمرًا ولا زمنًا، فيفقدون هيبتهم في أعين النساء كلما تقدم بهم العمر.

أزمة الرجال أنهم لا يفكرون سوى في جسد الأنثى التي أمامهم! ولا يفكرون فيها هي! أيجوز بالفعل أن ينظر إليها هكذا؟! أن يراها بهذه الطريقة؟! هل يحق له لمسها في الأساس؟! هل تريد هي أيضًا ما يريده؟! وماذا يمثل لها ما يريده هذا منها؟!

أزمة الرجال أنهم لا يرفقون مع الجنس أمورًا أخرى! كالتفاهم والود والألفة!

لا يرفقون معه توافقًا إنسانيًّا ولا يسمحون بتورط مشاعرهم وخفقان قلوبهم! معظمهم يرونه بطريقة خاطئة من الأصل. تخيل أن تعيش حياتك لتفهم أمرًا حيويًّا هكذا بالنسبة إليك بوجهة نظر ورؤية خاطئة من الأساس!

الرجال يلزمهم بذل الجهد لنيل حياة جنسية طويلة تلبي هوسهم الدائم هذا، ولكنهم أكسل من أن يبذلوه، يفكرون دائمًا في اللحظة الحالية، في هذه الثانية، يفكرون في رغبتهم، حاجتهم إلى تفريغ مخزونهم وانتهائهم من الأمر، ولا يفكرون أبدًا في الكيفية التي تضمن لهم فعل ذلك لأطول فترة ممكنة.

لو فكروا فقط في احترام النساء كبداية! خلق أواصر الود والرحمة والرفق مع نسائهم! لضمنوا لأنفسهم حياة جنسية طويلة لن يوقفها تقدم العمر بهم، أو فقدهم قوتهم، أو ذبول أجسادهم!

ولكنهم أجهل من أن يستوعبوا ذلك.

لقد كان يجلس أمامي والد رباب ينتفض ويعرق ويسيل لعابه لمجرد ارتدائي قميص نوم يكشف جسدي! لطالما تساءلت وأنا مع زوجي: لماذا أشعر في كثير من الأوقات بالحقارة؟! لماذا تتسلل إلى قلبي هذه المشاعر؟! لماذا أشعر بالنفور؟! كيف تحولت من فتاة تزوجت لرغبتها في أن تكون بين أحضان رجل، إلى امرأة ترى الجنس مسبة وإهانة وتحقيرًا وإذلالًا لي أيضًا في كثير من الأوقات؟! كيف لفتاة كانت ترى رغبتها تلك سببًا

كافيًا للزواج، أن تصبح امرأة ترى أن تلك الرغبة تقلل من صاحبها؟!

توصلت إلى الإجابة وأنا أجلس أمام والد رباب المتعرق المنتفض وهو يحاول أن يلمس أي جزء مني، يحاول أن يلصق جسده بجسدي! والد رباب هو الذي أنار عقلي بالإجابة! ليس زوجي؛ فقد كان عقد زواجنا يمنعني من رؤية الإجابة، وليس صاحب المحل؛ فقد منعتني رغبتنا المشتركة في بعضنا من التفكير المتزن!

ولا حتى أبي وإخوتي، فقد كنت طفلة وأقنعت نفسي أن بهم شيئًا خاطئًا!

هو والد رباب الذي نجح في إنارة عقلي بحقيقة أنني مجرد انعكاس للرجل الذي أمثُل بين يديه.

زوجي كان يحتقرني، طوال ثمانية عشر عامًا من الزواج! كان يحتقرني فاحتقرت نفسي بالتبعية! وأنا التي كنت أظن أن زوجي على الأقل سيراني بطريقة صحيحة! زوجي من سيصحح خطأ ما اقترفه الرجال من محارمي!

أنا ما تعلمته من الرجال. كيف رأوني وكيف تعاملوا معي. والد رباب أنار عقلي بأنني لم أكن أنا طوال حياتي! أنا كنت ما أراده الرجال مني وما رأوه فيَّ! أنار عقلي بحقارته وانحرافه المجرد من أي خداع أو محاولات تجميل، فأدركت لأكون أنا؛ يجب ألا يكون هناك رجال في حياتي. يحب أن يُمحى وجودهم من محيطي.

اقتربت من والد رباب فجأة، ضغطت بصدري شبه العاري على ذراعه ووضعت يدي على فخذه؛ فأفرغ الرجل مخزونه في جلبابه الذي ما زال يحمل ماء وضوء صلاة الفجر.

زفر في لهاث متقطع مختنق، ابتعدت وقد اطمأن قلبي بأن رباب ستنجو منه هذه الليلة.

حاول الوقوف بقدمين مرتعشتين ونفض ملابسه، ثم بدأ تحركه نحو الباب، فتحه فأوقفته من مكاني.

- أنا مستنية يا حاج! البيت كله يوافق أقعد فيه، وساعتها أوعدك المرة الجاية هتبقى أحسن بكتير.

هز رأسه دون أن ينظر إليَّ. خرج وأغلق الباب خلفه.

خرج والد رباب وتركني وحدي مع احتقاري لنفسي، وشيء من النور في عقلي الذي يقول إن هذه ليست أنا!

أنا لست هذه المرأة، لست من كانت مع زوجي، ولا مع صاحب المحل،

وحتمًا لم أكن التي كانت تجلس بجوار والد رباب منذ دقائق. لست هذه المرأة التي تجلس الآن بقميص نوم لو تحركت قليلًا لتمزع من فوق جسدها.

أنا لست هذه المرأة، ولم أكن قَطُّ أنا! الفتاة التي أرادت في مراهقتها أن تعيش الحب بين أحضان رجل تحبه ويحبها لم تخرج من داخلي قَطُّ، والآن تعلم أنها لن تخرج، تعلم أن لا وجود لرجل كهذا في الحياة، تعلم أنها لن تعرف نفسها إلا لو تخلت عن تلك الفتاة، وصورة الرجل الذي في عقلها. لن تعرف نفسها إلا لو أخرجت الرجال من داخلها وطهرت محيطها من وجود الرجال، كل الرجال.

جلست على أريكتي في منتصف صالتي، في شقتي الفارغة التي تمتلئ برائحة الغاز، أنظر إلى بابي المغلق، أترك دموعي تغرق وجهي وصدري شبه العاري، وعقلي؛ عقلي يرتب السبيل لتحقيق ذلك.

مر يومان كاملان بعد فتح محابس الغاز وترك الرائحة التي لا يشمها غيري تعبث بعقلي. في اليوم الثالث، سمعت طرقًا على الباب، فتحته فوجدت نفس الجمع الذي أُهنت أمامه بكامل عدده، يتقدمهم والد رباب الذي بدأ الكلام بإلقاء تحية الإسلام كاملة، وبلغة عربية صحيحة، وعينين تنظران في الأرض:

- يا ست أم علياء، أنا قعدت مع أهل البيت واتفقنا إننا نسيبك وسطنا! قولتلهم الست بعد غياب جوزها، الله يرحمه، تعتبر من حريم البيت برضو وما ينفعش تترمي في الشارع!

حريم البيت! أي حريم! هل تعرف معنى حريم من الأساس؟ هل تعلم أن حريم هو كل ما حرم انتهاكه؟ هل تعلم أن حريم الرجل هم من يقاتل دونهم ويحميهم؟ فبأي عين تقول إنني من حريم البيت؟! وبأي عين تطلق على نساء هذا البيت «حريم»، وكل واحدة منا منتهكة بطريقة مختلفة؟ كل واحدة منا تقاتل في شقتها من أجل أمانها، تقاتل رجل بيتها ويقاتلها بدلًا من القتال من أجلها!

ماذا تقول يا رجل؟! أنت آخر من يتكلم عن حريم البيت، يا من تنتهك حرمة بيتك وابنتك.

- كتر خيرك يا حاج، وكتر خير أهل البيت.

قلتها وأنا أمرر عينَي عليهم جميعًا؛ أم منة الساكنة بطفلتيها الملتصقتين بيديها دائمًا وزوجها البخيل، رباب المنكسرة ووالدها المتحرش وأخيها الأصغر المبتز، ميادة المقهورة وزوجها المدمن. استقر نظري على عينَي والد رباب في النهاية مع هزة رأس تؤكد أنه نفذ وعده وأن الدور عليَّ.

- بس أنا مش هاحس إنكم قابلني وسطيكم، غير لما أبقى من حريم البيت بحق وحقيقي!

- يعني إيه؟!

قالها والد رباب بتهديد.

- يعني باستأذنك يا حاج في يوم كده أقضيه مع الستات الحلوة دي مع بعض، نقضيه في الجنينة اللي جنب البيت، وأهو منة وميار يلعبوا، والست أم منة ورباب وميادة يغيروا جو، بعد دوشة دخول الغاز اللي شوفناها الفترة اللي فاتت.

ركزت عينَي في عينَي والد رباب، وأكملت بصوت ناعم ملتوٍ:

- ولا إنت يا حاج بتقول إني من حريم البيت كده وخلاص! ومش مطمن على وجود الستات معايا!

كانت نظرتي تقول إن شرط إتمام صفقتي معه متوقف على حسم هذه النقطة بالموافقة.

اعترض زوج أم منة:

- مفيش داعي يا ست أم علياء! إحنا معندناش وقت.

التفت له والد رباب بغضب حاول التحكم فيه:

- وماله بس يا أبو منة! خليهم يتفسحوا! ستات مع بعض ما جراش حاجة! شوفي إمتى يناسبك يا ست أم علياء واخرجي إنتي والستات.

- بكرة!

نطقتها سريعًا قبل أن ينهي جملته.

- بكرة الجمعة أجازة، نروح كام ساعة الصبح، ونرجع قبل ساعة الغدا إن شاء الله!

ظهر الغضب على زوج أم منة وبدأ يعلن احتجاجه، فأوقفه والد رباب بنظرة ونحنحة زاعقة:

- ماشي!

قالها والد رباب مضطرًّا.

- طيب بعد إذنك الستات يتفضلوا عندي شوية نشوف هنظبط أكل إيه ناخده معانا عشان البنات الصغيرة.

شعرت بوالد رباب سينفجر في أي لحظة وهو يحاول السيطرة على غضب زوج أم منة، ولكنه تمالك نفسه!

لم أعرف أن رغبته في كسري ووضعي تحته قوية إلى هذه الدرجة! هذا الرجل يبغضني إلى درجة لم أكن أتخيلها!

قال في هدوء:

- وماله!

ثم تزحزح وهو يشير إلى حريم البيت ليتحركن ويدخلن شقتي. تحرك الرجال إلى الخلف وتركوا نساءهم يقدمن قدمًا ويؤخرن الثانية!

هذه كانت المرة الأولى التي تجتمع فيها نساء البيت في مساحة واحدة منذ أن سكنه الجميع. جلست أم منة بجوار رباب على الأريكة، وجلست ميادة على كرسي في مقابله جلست أنا.

أربع نساء يتحسسن من جلوسهن معًا في حيز واحد! جلسنا نتبادل النظر؛ كل امرأة إلى الأخرى ولا نعرف من أين نبدأ.

بدأت أنا بالسؤال! كنت أحتاج إلى أن أعرف الأرضية التي سأبدأ بها علاقتي بهن بعد كل ما قيل عني:

- إنتو مصدقين الكلام اللي اتقال عليا ده؟

ردت رباب دون تفكير:

- أنا ما صدقتش، طول ما أبويا هو اللي بيقول يبقى عمري ما هاصدق.

أكدت أم منة:

- ولا أنا والله يا ست أم علياء! أنا من ساعة ما جيت هنا وعمري ما شوفت منك حاجة غلط! ربنا اللي يعلم أنا كان نفسي أدخل بيتك من زمان! بس الله يجازيه جوزي، قاطعني عن كل الناس!

قالت ميادة في خجل:

- إنتي ست الستات يا أم علياء، إنتي اتظلمتي وأنا شاهدة!

- خلاص يا ستات! أنا بس كنت عايزة أتأكد إنكم مش مصدقين اللي بيتقال عني!

تنهدت براحة وابتسمت.

- خلينا بقى في المهم! هنعمل أكل إيه بكرة عشان الخروجة؟

تبادلن النظرات فيما بينهن وبين وجهي المبتسم!
سألت أم منة:

- هو إحنا هنخرج بجد؟!

أكدت أنا:

- طبعًا! ما تخافيش! جوزك مش هيكسر كلمة الحاج أبو رباب.

- دي هتبقى أول مرة أخرج وبابا عارف!

ضحكت رباب.

- أنا ما خرجتش من ساعة ما اتجوزت!

قالتها ميادة وكأنها تحادث نفسها أو تتذكر شيئًا ما.

رددت عليهن:

- خلاص! أنا عندي الأكل، هاعمله وأحضره، إنتو بس اجهزوا عشان عايزين ننزل بدري أوي عشان نلحق نرجع قبل ما الرجالة تعمل دوشة.

بدأوا لملمة أنفسهن للخروج من شقتي والاستعداد للغد.

قبل شروق شمس اليوم التالي؛ يوم الجمعة. تحركنا من البيت؛ أنا وأم منة وطفلتاها منة وميار اللتان تقاومان النوم بحماس الخروج، ورباب وميادة.

تحركنا بعد أن أكدت عليهن أن يغلقن فتحات تهوية الغاز جيدًا حتى نمنع دخول الحشرات والفئران أثناء غيابنا، وغلق النوافذ والشرفات حتى لا يستيقظ الرجال من ضوء الشمس أو الضوضاء.

أكدت على رباب أن تهيئ ضبط سخان الغاز حتى يستيقظ والدها، فيسخن ماؤه سريعًا كي لا يتأخر على صلاة الجمعة. نبهت على ميادة أن تتجاوز هذه الليلة وتحضر لزوجها جلسة سكره وتدخينه كما يريد لإلهائه فيها، شددت على أم منة ألا توقظ زوجها وتغلق أي نافذة قد تأتي بضوضاء، وأن تترك له طعامًا يُطهى في حال استيقظ جائعًا.

أما أنا، فأمنت شقتي بسد كل فتحات التهوية الإضافية. أغلقنا بيتنا جيدًا على رجالتنا وخرجنا للحياة.

طقس اليوم كان يحمل أجواء لا هي صيف ولا هي شتاء! لا خريف ولا ربيع! أجواء إسكندرية المميزة التي لا نعرف من خلالها تحديدًا في أي فصل نحن! أجواء إسكندرية التي تود أن تعيش فيها إلى الأبد.

وضعنا أمتعتنا في حديقة عامة قريبة من البيت، فرشنا الأرض بملاءات سرير نظيفة، وضعنا علب الطعام في منتصفها ثم جلسنا وحاوطنا الأمتعة.

في البداية لم نعرف من أين نبدأ الكلام، جلسنا ننظر إلى بعضنا وكأن الكلام انتهى! أو ربما امتلأ بنا الكلام حتى عجز اللسان عن صياغته! كان يقف بيننا حائل وحيد؛ اسمه الرجال.

الرجال الذين قتلوا بداخلنا حب الحياة، ثم خلقوا بداخلنا عداوة تجاه كل امرأة من جنسنا! هذه هي حيلة الرجال الأزلية؛ يوهمكِ أن عدوتكِ بنت جنسكِ، هي من تفسد حياتكِ، هي من تحوم حول رَجلكِ، هي من تحقق حياة أفضل، هي مميزة أكثر، ناصحة أكثر، ناصحة في الحفاظ عليه وإسعاده بالطبع!

حيلة ينجحون فيها دائمًا، لتعيش كل واحدة منا تشعر بالتهديد من أي وكل امرأة أخرى! فكل امرأة هي أنجح منكِ في الحفاظ على جمالها وبيتها

وزوجها، كل امرأة هي أفضل منكِ في أعين الرجال! فنعيش حياتنا في منافسة لا أساس لها!

عندما جلسنا كان الحائل بيننا، مقارنات الرجال.

والد زوج ميادة أهان ميادة لكونها غير قادرة على الإنجاب والحفاظ بابنها على إرث العائلة؛ فجلست مع أم منة تشعر بالتهديد من كونها أمًّا لطفلتين، وجلست أم منة تنظر إلى قوام ميادة الرشيق وكيف أنها بعد عامين من الزواج ما زالت تحمل نفس الجسد المثالي! زوج أم منة لا يتوقف عن مقارنتها بميادة التي حتمًا تسعد زوجها بجسدها هذا!

أم منة تتحسس من كوني امرأة بمفردي قادرة على خطف زوجها منها؛ إنه يحذرها مني طوال الوقت. رباب ترى أم منة زوجة مستقرة في بيتها، وترى ميادة تعيش في شقة لم تحلم يومًا بالبقاء في مثلها، وتنظر إليَّ كامرأة خالية من وجود رجل فوق رأسها.

كنا نجلس جميعًا، ترى كل منا الأخرى، أفضل منها. ترى ذلك من خلال عامل مشترك؛ أين موقعها من الرجل!

أما من استطاع فك هذه الطلاسم، فهما منة وميار! بعفويتهما وطفولتهما، ضحكهما وأسئلتهما الغريبة! فتركنا محاولات التواصل مع بعضنا وتوجهنا للكلام والتواصل مع منة وميار، ثم اللعب معهما، لعبنا وضحكنا، نتعب، نجلس، نتناول الطعام.

مر الصباح وانتصف النهار؛ تقلق أم منة من احتمالية استيقاظ زوجها، ترد عليها ميادة بأن زوجها هي لربما في غيبوبة الآن من المخدرات، تضحكان معًا، تميل رباب عليَّ وتطلب مني أن أهربها من هنا ولا تعود إلى البيت ثانية، أطمئنها بأن قريبًا لن يعود والدها لفعل ما يفعله معها أبدًا.

يسألن: متى نعود؟ أشير بأن الآن هو وقتنا الخاص، لا يجب أن ندع الرجال يفسدونه علينا. يصدقن على كلامي ونستمر في البقاء.

مر الوقت، فُكت شفرات صمتنا، وزالت تخوفاتنا من بعضنا، كل منا عرفت أننا متشابهات، لا فرق بين ميادة وأم منة، ورباب وميادة، وأنا وجميعهن.

كلٌّ منا يمر بما تمر به الأخرى، كلنا نتعرض لنفس القهر والحرمان.

في عصر اليوم، كانت أم منة وميادة تتهامسان، تجلس رباب مع منة وميار تلاعبهما، ثم يميل ثلاثتهن على كتفَي وقدمَي. تضحك رباب معهما كطفلة،

وأضمهن أنا كأم لم تمارس أمومتها مع بنات تحبهن من قبل.
جلست أنظر إليهن وأدركت أن عمرهن قد سرق منهن، لقد سرق عمرهن رجالهن. الرجال سارقو العمر.
يسرق الأب حياة ابنته بتحديد مصيرها، بترسيخ النموذج الأساسي للرجل في رأسها، بحرمانها من الأمان فتظل عمرها كله تبحث عنه فتتلطم بين أيدي هذا وذاك.
وتتزوج من يسرق شبابها، أحلامها وخيالاتها وصحتها ومالها وكرامتها إذا أراد أيضًا! لتنجب ولدًا يسرق ما تبقى بداخلها من حب، يسرق حبها وحنانها المتبقي، أملها الأخير في الحياة.
تعيش المرأة بين سارقي العمر طيلة حياتها، ولا سبيل للخروج من تلك الدائرة اللعينة إلا بالتخلص منهم.
لقد سرق والد رباب عمرها، أمانها، احترامها لجسدها وما تنتظره من أي رجل آخر في حياتها. سرق زوج أم منة كرامتها، ثقتها في نفسها، رغبتها في أن تكون بين يدَي رجل. سرق زوج ميادة منها أنوثتها، رغبتها في الحماية والراحة، أحلامها في حياة جيدة، رغبتها في الأمومة وحلمها في أن تملك بيتها.
أما أنا فسُرقت مني حقيقتي.
حقيقة كوني أحب أن أعيش رغبات جسدي الطبيعية. لقد سُرق مني أماني تجاه جسدي وما يطلبه، لقد سُرقت مني طبيعتي واحتياجاتي.
لقد سرقها زوجي تحت وهم عشته معه، وشعور بأنني مجرد أداة متعة يخجل منها، سرقها صاحب المحل بكذبه وشعوري بأنني شاركت في إيذاء امرأة أخرى، وسرقها والد رباب بأقسى الطرق؛ بالقذارة والانحراف.
ومن اليوم سأعيش كما تعيش معظم النساء! نساء ينكرن رغباتهن الطبيعية ليكف الرجال عنهن أيديهم ونظراتهم المهينة.
فهذا ما يدفعنا إليه الرجال في النهاية! المسيئون منهم تحديدًا! أن ننكر ما نريده حتى لأنفسنا! سنعلن أمام الجميع أننا زهدنا؛ لا نريد ولا نحب ولا نطلب.
سنعيش راهبات إذا أردتم، فقط كفوا أيديكم عنا، ابتعدوا بانحراف تصرفاتكم وخلل أفكاركم عنا. ارحلوا عنا برغبتكم الدائمة في استغلالنا

ومص دمنا. سننكر حقيقة ما نشعر به وما نطلبه من أجل النجاة من الإهانة.
سأفكر في عقلي وأطوع جسدي وأقتل مشاعري، من أجل حماية نفسي من الوجود مع رجل سيسيء لي في النهاية على أي حال.
نظرت إليهن ورأيت أننا جميعًا مجروحات، محرومات، مقهورات من رجال لم يراعوا حرمة نسائهم ولا أهل بيوتهم، رجال لم يقتربوا حتى ولو من بعيد من مفهوم الرجال في رأسنا، نحن النساء.
قبل أن تغيب الشمس، كنا قد أزلنا كل الحواجز، كنا قد أقمنا صلة لن تنقطع فيما بيننا أبدًا، كنا قد تخلصنا من السم الذي دسه الرجال بيننا، فحل السلام والصفاء على قلوبنا. افترشنا الأرض في تعب، تلاقت أعيننا في امتنان لوجودنا في حياة بعضنا.
ثم هطل المطر.
من حيث لا نعلم! بدأ هطول المطر بحبات ماء ضخمة، لم نفهم في البداية أن الماء المتساقط فوق رؤوسنا ماء مطر! فور أن انتبهنا، أسرعنا في لم الأمتعة والحقائب والملاءات. نجمع كل شيء في سرعة، ثم نجري لنحتمي في أي مكان! نجري ونبحث ولا نجد فنضحك، نترك ما نحمله يسقط من أيدينا، نقف تحت المطر ويعلو ضحكنا، نرفع رؤوسنا إلى السماء.
كانت هذه «شتواية غسيل البلح» كما نعرفها كإسكندرانية، لكننا اعتبرناها شتواية غسيل قلوبنا نحن.
هتفت بهن:

- ادعوا يا ستات! ادعوا ربنا يخلصنا من الرجالة اللي في حياتنا دي! ادعوا ربنا يخلصنا منهم!

رفعنا جميعًا أيدينا إلى السماء، ندعو بعلو الصوت: «خلصنا منهم يا رب»، ندعو بضحكات تحولت إلى دموع امتزجت مع ماء المطر، دعونا حتى بُح صوتنا وتوقف المطر.
ثم في النهاية، حملنا أمتعتنا في صمت وعدنا إلى البيت.

مع آخر ضوء للنهار، دخلنا الشارع نحمل أمتعتنا مرهقات وصامتات، وفور دخولنا وجدنا زحامًا وعربات إسعاف ونجدة تتكدس في شارعنا.

لم نتبين ما يحدث إلا بعد اقترابنا من البيت، فقد كان كل هذا يخصنا، يخص بيتنا.

لقد شهدت لحظة رجوعنا بيتنا، خروج رجاله محمولين إلى عربات الإسعاف على محفات كجثث مغطاة بملاءات أسِرَّة تُركوا صباحًا نائمين عليها!

لقد جاءت النجدة وكسرت أبواب الشقق على من فيها بعد بلاغ من صديق والد رباب الذي لم يجده في صلاة الجمعة، فانتظر حتى صلاة العصر، وحين لم يجده أيضًا، قرر الذهاب إلى منزله للاطمئنان، وفور دخول البيت شعر بشيء خانق لا يعلم مصدره!

البيت ساكن في وضع غير مريح. طرق الأبواب فلم يرد عليه أحد، طلب النجدة، فكسرت أبواب الشقق ليجدوا الرجال نائمين، أو بمعنى أدق؛ ميتين.

ماتوا جميعهم من تسرب غاز غير معروف سببه، مات والد رباب وأخوها الأصغر وزوج أم منة وزوج ميادة.

أما شقتي أنا فكانت خالية.

هل يستمع الله إلينا؟! هل يستجيب لدعائنا؟! هل يرانا نحن النساء ويرى كيف نتعرض للظلم؟! وهل سيأتي اليوم الذي يرفع عنا فيه هذا الظلم؟!

هل حقًّا نستحق ما يحدث لنا لأننا كما يقولون؛ نقبل الظلم؟! أليس هذا ما يقولونه دائمًا لكل امرأة تشكو حالها؟! يقولون أنتِ من قبلتِ، أنتِ من تحملتِ، أنتِ من صمتِّ، أنتِ تستحقين كل ما يحدث لكِ.

ليست هناك امرأة شكت ما يحدث لها من رجال حياتها، إلا وسمعت من يحملها مسؤولية ما يحدث معها، وأنا مثلهن.

أنا عشت حياتي أتحمل مسؤولية كل ظلم يقع عليَّ! ويوم أن قررت أن أتوقف عن الوقوع تحت وطأة الظلم، يوم قررت رفض التعرض للظلم؛ ظلمت أنا.

ما لا يعرفه الكثير، أن حماية نفسك من الظلم، قد تكون وسيلته الوحيدة هي البدء في مبادلة الظلم بظلم أكبر!

لقد وعينا جميعًا على التحذير بأن أكثر أهل النار من النساء! نعيش عمرنا نهرب من هذا المصير. يصمت كثير من النساء لأنهن لا يردن دخول دائرة الظلم التي يفرضها الرجال عليهن، وما إن يُحمل الجميع المرأة المسؤولية وتُضطر إلى الدفاع عن نفسها بانتهاج ظلم مقابل، حتى يلومها الجميع أيضًا وتلقى في النهاية المصير الذي كانت تخشاه!

هذه دورة حياتنا نحن النساء!

لم أنتبه إلى طريقة سردي المخيفة إلا عندما سمعت صوت حفيدتي ورأيت نظرتها إليَّ.

سألت مارية في رعب:

- موتيهم يا تيتة؟!

- النجدة حققت وعملوا معاينة للبيت ولقوا إن في غلطات في تركيب وصلات الغاز، جابوا اللي اشتغلوا في البيت وحققوا معاهم، كلهم اعترفوا على الواد بتاع الغاز، جابوه وحللوله وعرفوا إنه مدمن، اتحاكم ولبس في تلات سنين سجن واترفد من الشغل.

سألت ثانية في شك:

- يعني مش إنتي يا تيتة؟!

- البوليس قال مش أنا.

- طب والحقيقة يا تيتة؟

- الحقيقة إن الرجالة دي خاضت في عرضي وشرفي، فيهم اللي كان عايز ينام معايا، وفيهم اللي كان بيزاول بنتي، فيهم اللي بيضرب مراته ويمنع عن بناته اللقمة، فيهم المدمن اللي ساب مراته لراجل غيره بقرش حشيش! الحقيقة إن الرجالة دي وجودها كان تكديرة لكل ست في حياتهم. الحقيقة إنهم سرقوا عمر ستاتهم. الرجالة دي تستاهل الموت. مش مهم بقى مين اللي موتهم! المهم إنهم ماتوا، ولحقنا عمر الستات اللي باقي.

ظلت مارية تنظر إليَّ بتشكك حتى سمعنا طرقًا عصبيًّا غاضبًا على الباب! كانت علياء!

اهتز جسدي في توتر؛ فكانت تلك المرة الأولى التي أراها منذ أن غادرت هذا البيت منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا!

النساء مذنبات، دائمًا وأبدًا نحن مذنبات. ننتظر عقابًا ما! من الله في السماء، ومن الرجال على الأرض، ومن الحياة في هذا الكون الواسع.

بعد خروج رجال البيت منه جثثًا، وتوالي خروج النساء من بعدهم؛ انتظرت عقابي.

أغلقت على نفسي لما يقرب من ثلاثين عامًا خوفًا من العقاب! خوفًا من أن يعاقبني الله بفضحي، بمعاقبتي من الرجال بالدخول في حياتي وإفسادها، من أن تدهسني سيارة لتضع خاتمة لحياتي على أسفلت شارع يدوسه الجميع بأحذيتهم بعد رفع جثتي ودمائي من عليه!

جلست وانتظرت عقابي.

فتحت مارية الباب لأمها، فور أن فُتح الباب، أزاحت علياء ابنتها من طريقها ووصلت إلى غرفة الأنتريه، مكان جلوسنا، وما إن رأتني حتى أخرجت غضب كل السنوات الماضية:

- وأنا اللي كنت حالفة إني مش هادخل البيت ده تاني غير عشان آخد عزاكي!

لم أنطق ولم تنطق مارية من الصدمة، في حين أكملت علياء بعينين تلمعان وتشعان غضبًا وكرهًا:

- قعدت سنين آجي وأعدي كل شوية أبص على البيت من بعيد، وأستنى يقولولي أمك ماتت، أشوف هتموتي إزاي وهتتعذبي بأي طريقة! عشان لما يقولوا الله يرحمها؛ أقولهم دي ما تستحقهاش، وأحكيلهم كل حاجة عملتيها! بس واضح إن عمايلك السودا لسه ما خلصتش وجاية بعد العمر ده تقلبي بنتي عليا! إنتي وصلتي لبنتي إزاي بعد العمر ده؟! مخك وزك يقلبها عليا إزاي؟!

هذا هو عقابي إذن!

لا، لم يكن العقاب وقوف ابنتي أمامي تتهمني وتتمنى موتي بأبشع الطرق!

عقابي الحقيقي أنني لم أحب ابنتي!

في اللحظة التي وقفت فيها علياء أمامي بعد ثلاثين عامًا دون أن أشعر بأنني اشتقت إليها ولو قليلًا! دون أن أرغب في أن أضمها إلى حضني! أدركت أنني قد نلت عقابي بالفعل، عندما أنجبت طفلة ولم أستطع أن أحبها، تقبُّل صفاتها، طباعها، محاولة التفاهم معها وخلق أي نوع من التواصل والقرب معها، لقد حُرمت من أمومتي على الرغم من أن ابنتي تقف أمامي! حُرمت من حب كان من الممكن أن يغنيني ويكفيني عمري كله!

كرهها هذا نتيجة طبيعية، لا ألومها عليه، لقد ظلمت علياء عندما وُلدت في كنف أم لم تستطع أن تحبها. مسكينة!

دافعت مارية:

- أنا اللي جيتلها يا ماما، هي ما كانتش تعرفني أصلًا!

نهرتها علياء بعنف وقسوة:

- إنتي تخرسي خالص! حسابي معاكي بعدين!

- استهدي بالله يا علياء!

قلتها تخفيفًا.

ألقت علياء اتهاماتها نحوي:

- إنتي عايزة تعملي إيه في بنتي! مش كفاية اللي عملتيه فيا! عايزة تبوظي حياتها زي ما بوظتي حياتي؟

أرادت مارية الدفاع عني مرة أخرى:

- يا ماما!

- استني يا مارية! ده حسابي أنا وأمك.

أوقفتها أنا هذه المرة.

امتثلت مارية لكلمتي، فسحبت نفسًا لمواجهة علياء:

- شوفي يا بنتي! إنتي صدقتي كل كلمة اتقالت عني، اتقالت من أبوكي واتقالت من كل راجل سكن في البيت ده، صدقتي من غير ما تسألينى إذا كان صح ولا غلط!

صرخت بغل:

- أنا شوفتك بعيني!

- ومشيتي يا بنتي! مشيتي من غير عتاب، وأنا ما رضيتش أقف قصادك، وخلاص كل واحدة فينا عاشت بعيد في حالها! خلينا نركز دلوقتي في مشكلة مارية.

- مارية معندهاش مشكلة!

- مارية مش عايزة تتجوز يا علياء!

- هتتجوز ورجلها فوق رقبتها، كفاية اللي عملته!

- هي ما عملتش حاجة غير إنها حبت واحد وطلع واطي!

- كانت لازم تحافظ على نفسها! ولا إنتي عايزاها تبقى زيك!

- زيي إزاي يا علياء؟ قوليها!

لم تقلها علياء، فقط تركت عينيها تقولانها، وحركة جسدها تصرخ بها!

أكملت أنا:

- بنتك هتبقى زيي لو اتجوزت غصب! بلاش يا علياء، ارحمي بنتك ونجيها.

- ملكيش دعوة! اطلعي إنتي منها، بنتي وأنا حرة فيها، ثم إنتي لسه عايشة لحد دلوقتي ليه أصلًا!

انتفضت مارية مع انتهاء جملة أمها وخرجت من وضعها المراقب الصامت إلى وضع المدافع مرة أخرى. وقفت أمام أمها تمنعها من الكلام.

- بس يا ماما! إنتي بتقولي إيه!

صرخت علياء في ابنتها:

- اسكتي إنتي! كفاية وساختك!

نهضت من مكاني بصعوبة ووقفت بجوار مارية.

- اسمعي يا علياء! لو وجود مارية معاكي مأزمك، هاتيها تعيش معايا وما تشيليش همها خالص.

فتحت مارية عينيها باتساعهما وهمست في أذني:

- بجد يا تيتة؟!

لم أرد عليها، كنت أنتظر رد علياء.
سألت علياء في ذهول:

- إنتي عايزة تاخدي بنتي مني؟!

- لأ يا بنتي، أنا مش هاخدها منك! أنا بس هاخليها عندي لحد ما ننهي موضوع الجوازة ده! إنتي ما تتصدريش، أنا اللي هاتصدر.

كنت أعرف أن عرضي هذا سيصادف هوى في رأس علياء! علياء ترى ابنتها الآن خطيئة وحملًا ثقيلًا يجب التخلص منه. علياء تريد أن تهرب ولكن أمومتها تمنعها! معي؛ لم تمنعها بنوتها، فهربت.
أما الآن فهي أم! أم تريد التخلص من ابنتها! فأشرت أنا على المخرج من هذه الأزمة.
حركت علياء رأسها تجاه مارية وسألت:

- إنتي موافقة على كلامها ده؟!

هزت مارية رأسها بالموافقة سريعًا:

- أيوه يا ماما، بلاش إنتي تتصدري! خلي تيتة تتصرف.

- لو فضلتي معاها لا إنتي بنتي ولا أعرفك! ومش هتاخدي مني قرش ولا هتشوفي وشي تاني!

- ماما!

قالتها مارية وهي لا تصدق ما تسمعه.

- بلا ماما بلا زفت! الست دي بوظت حياتي وهتبوظ حياتك!

* * *

مسكينة علياء! تراني أصل الشرور.

يا ترى هل كان من الخطأ تركها ترحل؟ هل كان يجب إبقاؤها بجواري لتفرغ غضبها فيَّ بدلًا من كونها تفرغ غضبها في ابنتها الآن؟!

إنه خطئي أنا! أنا التي لم أصلح الأمور بيننا! ولكنها قررت الرحيل في وقت لم أستطع فيه تفسير نفسي! لم أكن لأحتمل أن أقف أمام ابنتي أشرح لها نفسي، أشرح لها ظلم والدها، علاقتي بصاحب المحل.

عندما قررت الرحيل، رأيت ذلك فرصة لانتهاء حياة التفسير والشرح، فرصة أن أعيش حياتي دون لوم من أحد حولي، فانتهزتها.

* * *

- يا ماما! أنا مش عايزة أتجوز دلوقتي!

قالتها مارية كمحاولة أخيرة لإقناع أمها.

- أومال عايزة تفرطي في نفسك وبعدين تعيشي على حل شعرك!

صرخت بها مارية وهي تمنع نفسها من البكاء:

- أنا مش كده يا ماما!

صرخت بها علياء مع رفع يدها بنية صفع ابنتها على وجهها:

- أومال مين اللي كده يا وسخة!

أكره هذا الجسد، ولكنه في هذه اللحظة قرر أن ينصفني! فقد اعتبر الإهانة موجهة له ولصاحبته، فانتفض ليقف ويدافع عن نفسه وعنها.

تحرك جسدي سريعًا، ليقف حائلًا بين علياء ومارية، بين ابنتي وحفيدتي، وقفت ورفعت يدي لأمنع يد علياء من لمس وجه مارية، وقفت أحجز عن مارية بجسدي كله.

- خلاص يا علياء! خِلصت كده، من النهارده البنت دي مسؤوليتي، ومش هتاخد قرش منك ولا هتحملك أي مسؤولية. مارية من النهارده مسؤوليتي أنا.

خفضت مارية الواقفة خلفي رأسها لتسنده على كتفي وهي تبكي. نظرت إليَّ علياء بغضب لن يستكين أبدًا.

- اشبعي بيها.

قالتها وغادرت غرفة الأنتريه والشقة بأكملها وأغلقت الباب خلفها في عنف.

عاد جسدي إلى حالته الأولى، حالته الهشة البالية، وجدت قدمَي تأبيان أن تحملاني، فعدت إلى الأريكة سريعًا وأنا أسحب مارية معي. جلسنا متجاورتين، ضممتها قليلًا وأكدت:

- إنتي هتعيشي معايا، ومفيش جواز. ما تخافيش من حاجة.

- بجد يا تيتة!

ابتسمت في إرهاق، مسحت دموعها بيدي، ربَّت على كتفها، وأشرت برأسي لطمأنتها، أكملت مسح دموعها وبدأت تتسلل ابتسامة إلى شفتيها.

- طب إيه رأيك يا تيتة، نقوم نعمل حاجة نتعشى بيها؟

نظرت لها دون كلام، مسحت وجهها وضحكت بعلو الصوت:

- طب والله يا تيتة قعدتك هي اللي تفتح النفس!

ربَّت على كتفها وأمنت بهزة رأس:

- مصدقاكي يا بنتي، مصدقاكي.

طوال ما يقارب الثلاثين عامًا، استيقظت كل يوم أسأل نفسي: «هو أنا لسه عايشة ليه لحد دلوقتي؟».

بعد عودتنا من يوم خروجتنا الوحيد الذي جمعني مع نساء البيت؛ تغيرت حياتي تمامًا.

بعد عودتنا، بدأ يعلو صوت الصراخ؛ ميادة، رباب، أم منة وطفلتاها، يصرخن جميعهن جثث رجالهن.

أما أنا فلا أصرخ في الموت، مع الموت، أصمت.

في صمتي هذا كان اتهامي بأنني من رتبت لقتل هؤلاء الرجال! على الرغم من انتهاء التحقيقات بسجن الفتى المترنح وظهور عيوب في تركيب وصلات الغاز في البيت! فإن النفوس والأعين والقلوب ظلت تحمل هاجس أن أم علياء قتلت رجالة البيت.

لم تجتمع النسوة في شقتي ثانية، ثم بدأن مغادرة البيت تباعًا؛ لعدم تحملهن العيش في بيت مع أرواح رجال مقتولة معذبة.

أم منة اكتشفت ثروة خلف زوجها البخيل، ورثت منه مبلغًا ضخمًا. عزفت عن الزواج ثانية وقررت استثمار المال، ففتحت محل ملابس صغيرًا تحول مع الوقت والعمل إلى سلسلة محلات، أصبح المال يجري بين يديها جريان الماء.

غادرت البيت بعد استلامها إرثها مباشرة، ظلت تهاتفني بعدها وتسألني في كل مرة إذا كنت أحتاج إلى المال، ولكنها لم تعد ولا مرة لزيارتي في البيت.

رباب تزوجت حبيبها المستغل بمال إرثها من والدها، تزوجت وغادرت البيت، بعد عامين من الزواج كانت تخوض قضايا طلاق ونفقة استمرت لخمسة أعوام أخرى، وبعد طلاقها النهائي تزوجت من محامي قضيتها، بعد عامين أيضًا طلبت منه الطلاق ورفض! ولكنه محامٍ! فلم تستطع خوض غمار رحلة الطلاق ثانية، فاستسلمت لحياتها معه حتى مات في حادثة سيارة قيل إنها مدبرة، ولكن لم يصل أحد للجاني، ورثته ولم تتزوج بعده.

ميادة عادت إلى أهلها بعد أن طردها أهل زوجها المدمن من شقتها الدوبلكس. تزوجت بعد شهور قليلة من تاجر هذه المرة، ظلت تنجب منه كل عام طفلًا! كانت هذه طريقتها لإبراء ساحتها من شائعة العقم. كانت

تثبت أنها أرض خصبة.
أما أنا؛ فبقيت في البيت.
قطعت علياء علاقتها بي تمامًا، وجدت نفسي في شقتي وحدي، وفي بيت خالٍ لم تسكن شققه ثانية بسبب شائعات سرت بين سكان الحي عن أرواح الرجال المعذبة التي تسكنه.
وعندما يسأل أحد عن البيت وعني، يجيبون بأنني المرأة التي تروض أرواح الرجال، هي التي تجلس في البيت لتمنع أرواحهم المعذبة من الخروج وأذية باقي سكان الحي.
بقيت هكذا قرابة الثلاثين عامًا حتى تضخمت الأسطورة وأصبحت محمية بها! فلا يقترب مني أحد ولا أقترب من أحد.
كل يوم أنتظر أن يأتيني الموت، فقد انتهت حياتي! لا أعرف لحياتي سببًا!
حتى جاء اليوم الذي طرقت فيه مارية حفيدتي بابي!
أمن الطبيعي أن تبدأ حياة المرأة بعد السبعين من عمرها؟! أمن المعقول أنني انتظرت ثلاثين عامًا لمعرفة سبب بقائي حية؟!
بعد أن طرقت بابي وعرفت أنها تريد الهرب من زيجة ستدفعها إليها أمها، الهرب من لحظات ضعف أمام رجل أوهمها بالحب ليمتلكها، ووقوفي أمام أمها، بدأت حياتي الحقيقية!
بعد خروج علياء الغاضب من شقتي، قضت مارية ليلتها تشاركني الأريكة الضخمة. وضعت رأسها على قدمي وتركت نفسها لبكاء تطهيري طويل، تبكي ببطء وهدوء، بكاءً متواصلًا كمطر إسكندرية الذي لا يتوقف في أيام النوات.
أمسح على رأسها وكتفها، أتلو آيات قرآنية ما زلت أحفظها، أدعية سمعتها من هنا وهناك، حتى غلبنا النوم معًا.
في صباح اليوم التالي، وجدت أننا خلدنا إلى النوم على وضعنا هذا، أنا جالسة ومارية واضعة رأسها على قدمي.
أيقظت مارية لأحرك عظمي الذي تخشب وبدأ سبي ولعني، فتحت هي عينين منتفختين من كثرة البكاء، وبوجه متورم، ذهبت لتحضير الشاي لنا. عادت لتسأل مترددة خجلى عن وعد الأمس وهل هو سارٍ أم لا.
إنها حقًّا تشبهني؛ لا تحمل ذرة ثقة أمام كلمة أي مخلوق.

أجبت سؤالها:

- أمك زمانها راحت شغلها، روحي البيت هاتي حاجتك وتعالي.

ذهبت وعادت بحقيبتين ذكَّرتاني بحقائب خروج علياء من البيت! من كان يدري وقتها أني سأشهد اليوم الذي تعود فيه ابنتها إلى نفس البيت بحقائب مماثلة!

بدأنا التفكير في كيفية التخلص من الخطبة، أرسلت إلى خطيبها عدة رسائل تؤكد فيها أن كل شيء قسمة ونصيب، وأنها لا تريد إكمال الخطبة وبالتالي لا زواج، وأن الشبكة وكل ما أحضره لها، موجود في بيت أمها، يستطيع أن يذهب لأخذه في أي وقت.

وكما هو متوقع؛ لم يقبل المختل بقولة «لأ». ظل يطاردها بالرسائل والذهاب إلى مكان دراستها، زيارة أمها مرارًا وتكرارًا، أمها التي أعلنت أن الخطبة ما زالت مستمرة وأن مارية في زيارة لأحد أقاربها فقط!

أصرت مارية على الرفض، فبدأ بالتهديد بصور وفيديوهات توثق ما حدث بينهما. «هافضحك»، هذا ما ظل يردده.

هذا هو السلاح الذي لا يمل ولا يكل الرجال من إشهاره في وجوه النساء! التهديد بالشرف والسمعة والفضيحة! الخوض في أعراض النساء؛ سلاحهم الأشهر والأنجح على مر العصور في تخويفهن!

حتى وصل الأمر لي بالطبع!

فور أن أخبرتني بتهديده مرعوبة؛ طلبت منها أن تدعوه لزيارتي.

رفضت خوفًا:

- كده هيعرف إحنا ساكنين فين يا تيتة!

- ما هو إحنا عايزينه يعرف أصلًا يا بنتي!

لم تفهم مارية ولكنها امتثلت لرغبتي في النهاية، جاء وجلس أمامي، أرسلت مارية لصنع كوب شاي وحيد عادت به وتركته وذهبت سريعًا. خلعت طقم أسناني ووضعته بقرب الكوب، وبدأت سرد حكاية البيت بإيجاز، حكاية بيت الحريم الذي مات كل رجاله على يد امرأة تسكنه.

- بصراحة يا ابني، أنا ما يرضينيش تدخل جوازة وإنت مش عارف البنت اللي هتتجوزها دي أصلها إيه! فيا ريت تسأل عني وعن البيت، ولو عجبك الكلام ابقى تعالى اطلبها مني تاني.

- يعني إيه لو عجبني الكلام!

قالها بتحدٍّ.

- يعني أنا لو مكانك، ما أشربش الشاي.

نقل نظره بين كوب الشاي الوحيد وطقم الأسنان المستقر بجانبه وابتسامتي التي تظهر فمًا خاليًا خلفها في خوف، ثم تحرك بسرعة للمغادرة!

ظهرت مارية قادمة من المطبخ بعد خروجه تضحك:

- مش متخيلة شكله وهو خايف بيضحك إزاي! أنا شخصيًّا خفت يا تيتة من طريقتك!

- أنا لو مكانك، أخاف!

قلتها وأنا أركز نظري عليها، توقفت عن الضحك فجأة وزاغت عيناها!

استغرقها الأمر عدة ثوانٍ حتى أدركت أنني أمزح!

آه! هذه الفتاة ستحتاج إلى وقت حتى تستطيع تمييز هزلي من جدي!

الهيجان! معناه الفوران، الثورة، الحركة أو الاضطراب.

نطلق كسكندريين على البحر في أيام النوات صفة «هايج» لشرح طبيعته وعلو موجه وشراسته، جلجلة صوت موجه عند اصطدامه بالصخور.

في النوات يهيج البحر، فيلفظ شوائبه، كل ما تعلق به من مخلفات سفن وصيد وبشر وكائنات بحرية، ويلفظ أيضًا كنوزه!

يعرف كثير من السكندريين مشهد تجول رجل يرفع طرف بنطاله حتى ركبتيه، يرتدي ملابس ثقيلة علوية وطاقية صوف تقي أذنيه من البرد في الصباح الشتوي البارد، يحمل فوق كتفه جوالًا ويغمس قدميه جيئة وذهابًا فوق الشط، يتفقد ما لفظه البحر من كنوز، يميل فيلتقط شيئًا ما يضعه في جواله، ثم يستمر في التنقيب بطول الشط.

وصفني زوجي بالهايجة؛ أظن أنه لم يخطئ بالكامل! إنه صحيح بمعناه الفعلي وليس بمعناه المنحرف الذي كان يقصده زوجي! فأنا أحمل بداخلي ثورة دائمة، أضطرب كلما حُشرت في وضع إنساني لا يناسبني، أتحرك وأثور وأغلي وأفور عندما تعلق بروحي الشوائب، لقد رأى زوجي حقيقتي تلك وخشيها! خاف مني فقرر تحويل حقيقتي إلى شيء منحرف، مهين ومخجل!

تشبهني مارية. فهي تلفظ شوائبها العالقة وتقذف بالكنوز أيضًا في النهاية، ثم يصبح داخلنا رائقًا هادئًا، كحال البحر بعد انتهاء أيام النوات وشروق شمس الشتاء الدافئة عليه.

بعد انتهاء أزمة خطيبها المختل؛ فكرت، أن لا حياة تجوز في هذا البيت المتهالك، لا أستطيع أن أجعلها تعيش مثلي قادرة على التأقلم في أي وضع مهما كان سيئًا!

بدأت وضع خطة لتجديد البيت، سأبدأ بالمطبخ، فهي تحب الوقوف فيه وصنع الطعام.

ولأول مرة بعد خروج عمال الغاز، أدخلت عمالًا بعدهم البيت، هذه المرة لترميم البيت وتجديده. أخرجت كل ما وفرته من معاش زوجي طوال هذه السنوات، تركتها تصمم المطبخ كما تريده أن يكون، هيأت لها غرفة خاصة بها، منحتها الغرفة الوحيدة التي تطل شرفتها على الشارع، ونقلت أنا مكان

نومي لغرفة الأنتريه.

تسوقنا عبر الإنترنت لشراء فرش وديكورات جديدة تزين المنزل. تريني الصور، أعدل نظارتي وأقترب بعينَي من شاشة هاتفها، وتتركني أختار الألوان والتصميمات، لم يستغرق الأمر منا وقتًا طويلًا لنعود بهذا البيت إلى نقطة التألق مرة أخرى، لقد ذهبت حالته البالية المهترئة بلا رجعة.

نخرج لشراء طلبات المطبخ معًا، تتجول معي في الأسواق، سألتني مرة عن صاحب المحل وهل لا يزال حيًّا؟ هل محله قريب من هنا؟ فصحبتها يومًا إليه، سرنا معًا أمام محله من بعيد، يساعده الآن حفيده، حفيده من ابنته الكبرى التي كانت ولادتها السبب في تورطه بعلاقته معي. رأته مارية، ما زال يمتلك قوة جسد تمنعه من السير بظهر منحنٍ، تبتسم وتخبرني أنه وسيم على الرغم من كبر سنه! تغمز وتميل على أذني وتهمس: «ما بال بقى لما كان شاب صغير!».

أبتسم لتلميحاتها، تسأل عن العلاقة بيننا كل هذه السنوات، وهل ما زالت قائمة؟ هل أحدثه؟ هل أقابله؟ تسأل بعينين وابتسامة عابثة! أبتسم أنا بهدوء ولا أرد.

عادت مارية إلى الالتزام في دراستها، زهدت في محاولات التصالح مع أمها حتى ولو مؤقتًا، ركزت على رغبتها في إنهاء تعليمها. تذهب صباحًا إلى الجامعة، تعود محملة بأصناف الفاكهة، تقف لتصنع لنا طعامًا شهيًّا، نجلس لتناوله أمام شاشة التلفزيون، لقد اشتركتْ في عدد من المنصات التي تتيح لي مشاهدة الأفلام الأجنبية طوال اليوم. تتجه إلى غرفتها بعد تشطيب المطبخ لتتابع متطلبات دراستها.

حتى جاء يوم، وأثناء تناولنا الطعام كالعادة، وفي وسط ما اعتادت سرده من أحداث يومها، تحدثت عن منحة دراسية في إحدى الدول الأوروبية عرضها عليها أحد أساتذتها. تمسكت أنا بها، ورفضت هي الفكرة، أصررت أنا، كررت هي الرفض بكلمات لا تقول حقيقة ما تخشاه فعلًا!

- مش هاموت يا مارية قبل ما ترجعي، ما تخافيش!

قلتها أنا.

ظلت في حالة الرفض عدة أيام على الرغم من ذلك، ثم في النهاية اقتنعت وارتضت السفر عندما لمستْ أن هذا أمر سيسعدني بالفعل.

حضرتها للسفر، بكت ليلتها دون توقف، تعيد شرح كيفية التواصل بيننا، الهاتف ذو الشاشة الكبيرة.

- هنفتح فيديو يا تيتة. ما تنسيش تجددي باقة النت على طول، هتبعتيلي رسالة بصوتك من هنا، هتدوسي وهتسجلي كلامك، عايزة أسمع صوتك كل يوم وكل ساعة. لما أطلبك تردي عليا على طول.

لم تتوقف ليلتها عن توصيتي! حتى جاء الصباح وسافرت.

سافرت مارية وتركتني في أسوأ وحدة اختبرتها في حياتي. وحدة شغلتها مارية بالتواصل معي طوال اليوم، تتأكد من نومي وصحوي، تناول طعامي وأدويتي، سرد ما يحدث معها.

ثم حدث أن غابت عن التواصل معي يومًا كاملًا! أصابني الرعب وليس القلق فقط! أرسلت عددًا لانهائيًّا من الرسائل الصوتية، حتى جاء ردها في نهاية اليوم.

لقد تعرفت على شاب سكندري سبقها للسفر منذ عدة سنوات مضت.

- طول كلامنا، كان بيبص في عيني يا تيتة!

هكذا افتتحت سيرته معي! لم ينظر إلى جسدها، لم تتجول عيناه على مفاتنها، ظل ينظر إلى عينيها!

تحدثت ليلتها طويلًا عنه، ومع مرور الأيام تحول محتوى تواصلنا بالكامل عنه! ماذا قال، ماذا فعل!

الشاب السكندري ابن وحيد لأم مات زوجها عنها شابًّا صغيرًا، وتركها بمفردها مع طفلها. طفل تنازع أعمامه لضمه إلى حضانتهم، رفضت الأم، وخاضت معارك قضائية وتعنتات مادية فيما يخص مستحقاتها من موت زوجها من أجل التمسك بابنها، تفرغت له، لم تستطع الزواج مرة أخرى خوفًا من نزعه من بين أحضانها، فاستغنت.

كبر الطفل وأصبح مراهقًا، مراهقًا تربى وحيدًا مع أمه التي أغلقت عليه خوفًا من تسميم عقله من رجال العائلة، ولكنه مراهق في النهاية يريد أن يشعر بوجود يد عليا رجالية في حياته، فعاند أمه ليقترب من أعمامه، لم يستمع لها ولتحذيراتها، حتى اقترب! فاحترق!

لم يستقبله أعمامه بينهم، بل نبذوه ووصموه بـ«تربية حريم»!

وجد نفسه بين عائلة والده موصومًا بعد أن كان محرومًا فقط! انتبه لأول مرة لحقيقة أن أمه من ربته فقط! لم يكن هناك رجل! وأن هذا الأمر يُعد

وصمًا يجب الخجل منه!

لم يقتنع، صُدم في البداية، ثم أعلن رفضه. لا! إنها أمي، أعظم من ربتني، أنا لست موصومًا ولا شيء يدعو للخجل هنا!

رفضه لهذا المنطق المغلوط، جعل وجوده هنا ثقيلًا على قلبه، فصرح لأمه بأنه يريد السفر، لن يتحمل مواجهة هذه الأفكار ومحاربتها.

طاوعته أمه، وبعد إتمام شهادته الثانوية، أرسلته لإكمال تعليمه في الخارج، ثم ماتت بعد سفره بشهرين فقط! فلم يعد مرة أخرى.

تحكي مارية أن أول عامل مشترك بينهما وما جذبه للاقتراب منها، معرفته بأنها تربت ونشأت دون أب، مثله.

تحكي بأنه يفتخر دائمًا بكونه تربية امرأة، يفتخر بكونه نموذج الرجل الأول في حياته، يعلن أن أفضل ما حدث له في حياته أنه تعلم كيف يكون رجلًا من امرأة.

تحكي وتحكي، ولا تتوقف عن سرد سيرته وكل شيء عنه وعنها معه! عنهما!

أستمع إليها وأنتظر؛ أنتظر فقط تصريحها المباشر، أنها تحبه! وأن علاقتهما اكتسبت صفة العلنية فيما بينهما.

لم أنتظر طويلًا جدًّا حتى جاء خبر اعترافه بحبه لها، مع لمسة يد وضمة صدر رقيقة.

- ما كنتش خايفة يا تيتة! وما كنتش عايزاه يسيبني من حضنه أبدًا!

تحسست من حكيها! وظهرت بداخلي المرأة/المراهقة التي عاشت تؤمن بأن الزوج فقط هو من يستحق أن ينال كل هذه المتعة! يبدو أن بعض الأمور لا تتغير أبدًا.

- ده مش جوزك يا مارية، خلي بالك من نفسك!

طمأنتني بأن هذا لن يحدث ثانية، إنها تعرف حدودها الآن ولن تخضع لرغبة أي رجل مهما كان، إذا كانت لا توافق رغبتها أيضًا.

عامان مرَّا سريعًا، أنهت منحة دراستها بتفوق، طلبها الشاب السكندري للزواج قبل السفر عودة إلى البلاد، ثم عادا معًا.

عادت مارية، أخبرتني أنها لن تمنح الشاب السكندري موافقتها النهائية إلا إذا منحتها أنا موافقتي أولًا! فأحضرته ووضعته أمامي وانتظرت رأيي

الحاسم.
جاءت به، وأجلسته أمامي مع ثلاثة أكواب شاي صنعتها لنا، فور جلوسهما، خلعت طقم أسناني ووضعته بجوار صينية الشاي.
ابتسم الشاب السكندري وتبادل نظرات جانبية مع مارية، لقد حذرته بنت علياء!
تولى دفة الحديث هو، جلس أمامي ليتحدث عني!
يبدو أن مارية كانت تشغل أحاديثنا عنه، وتشغل أحاديثهما عني، تكلم عن حب مارية لي، عن وقوفي في ظهرها ودفاعي عنها، يحكي عن قوتي واستغنائي.

- بتفكريني بماما!

- آه، تربية حريم هاا!

قلتها بهدوء.
عقد حاجبيه، كنت أتوقع خجلًا، ولكنه بادلني نظرات متحدية وكأنه على وشك الشجار معي! أمسكت مارية يده وهمست في أذنه بشيء ما.

- تيتة!

نظرت إليَّ لائمة.

- مش هتعرفي تغلبيني!

ابتسمت بخبث.
تبادلت النظرات مع الشاب السكندري الذي نقل عينيه بيني وبينها ليفهم في النهاية أنني أمزح.
ثم ذهب المزاح وأصبحت جلستنا جادة، جلسة اتضح في نهايتها أنني لا أشبه أمه، بل أشبهه هو! أو هو من يشبهني! فقد عشنا حياتنا؛ أنا وهو، منبوذين من رجال حياتنا وعائلاتنا، عشنا موصومين منهم.
وافقت على زواج مارية هذه المرة.
في النهاية؛ حضرت فرحها!
نجحت مارية في إقناع أمها علياء بالحضور، ورتبت أمر جلوسها بجواري دون أن تخبر أيًّا منا بذلك، تفاجأنا ولكننا لم نفعل شيئًا خشية إفساد ليلة عمرها.
عندما أطلت أمامنا بفستانها الأبيض، انخلع قلبي، وملت على أذن علياء:

- والله وعرفتي تربي يا علياء! طلعتي أم أحسن مني.

لم أعرف إذا كانت سمعتني على الرغم من صخب الزفة أم لا! ولكنني رأيت دموعها، التي لا أعرف حتى الآن إذا كانت بسبب جملتي أم بسبب رؤيتها لابنتها في ثوب زفافها! فبعد نهاية حفل الزفاف واصلت علياء مقاطعتي تمامًا.

اشترطت مارية أنها لن تتزوج إلا لو قبلت أن أعيش معها، فأوضحت أنني لن أستطيع الخروج من البيت، فأنا أعيش الشارع ولا أستطيع تركه!

فرتبت مع الشاب السكندري السكن في فيلا في أحد الكومباوندات، ورتبت لي غرفة أرضي بجوار طريق الشارع العمومي، صحيح لم أعد أسمع ضوضاء، ولا أشعر بالتراب يغلف كل شيء! ولكنني ما زلت أسمع صوت مرور السيارات ولعب الأطفال في ساحات الفيلات المجاورة.

كنت أخبر مارية أن روحي تريد أن تحيا، لكن جسدي يمنعها! فأمَّنت لي ممرضة تقيم معي، دورها كان المحافظة على جسدي في أفضل حال، تمكنه من الحفاظ على روحي داخله لأطول وقت ممكن.

بعد عدة سنوات أنجبت مارية طفلة صغيرة.

في احتفال عيد ميلادها السادس، كنت أنا قد اقتربت من التسعين!

يوم عيد ميلادها، دخلت هي وصديقاتها لتريهن هذه العجوز المخيفة التي تسكن معهم! كانت تراني كائنًا غريبًا! ملعونة صغيرة لم تحبني ولم أحبها، فقد كانت تذكرني بطفولة ابنتي، جدتها علياء!

يوم عيد ميلادها السادس، جمعت أصدقاءها الملاعين الصغار ليتساءلوا: هي إزاي عايشة لحد دلوقتي؟

حينها فقط؛ أدركت روحي أن أوان رحيلها قد جاء.

نمت ليلتها حزينة، فرأيت في منامي جنازتي.

جنازة صغيرة، يسير فيها نعشي في الهواء دون أن يحملني أحد، تسير ورائي أم منة مع بنتيها، وكل واحدة منهما تحمل أكياسًا ممتلئة بالمال، رباب وقد فقدت وزنها الزائد، ميادة وأبناؤها الذين لم أستطع معرفة عددهم.

جنازة تسير فيها علياء مكشوفة الشعر ومارية تضحك بجوارها.

أما في خلفية الجنازة، فيأتي رجال البيت مهرولين سعيًا إلى الانتقام. والد رباب يجري وهو يضع طرف جلبابه في فمه، زوج أم منة بملابس ممزقة، زوج ميادة يهرول ويسقط، يقف ويهرول ثم يسقط.

وراءهم ومن بعيد يأتي زوجي جريًا يحاول اللحاق بي، يجري وهو يحاول نزع بنطاله وكشف نصف جسده السفلي.

أردت في منامي أن أستيقظ لأحكي لمارية ما رأيت ثم نضحك معًا! ولكنني لم أستيقظ قَطُّ بعد هذه الليلة.

المؤلفة

ابتسام شوقي، من مواليد الإسكندرية، وما زالت تقيم في أحد أحيائها القديمة. درست السياحة والفندقة، وأم لثلاثة أبناء وعشر قطط. بدأت الكتابة رغبة في المشاركة، وعُرفت بين القراء باسم «إسماعيل بيه»؛ نسبة إلى اسم صفحتها على الفيسبوك. صدر لها: «ملاذ آمن» (نصوص لحظية)، ورواية «يوم مثالي للبوح».